

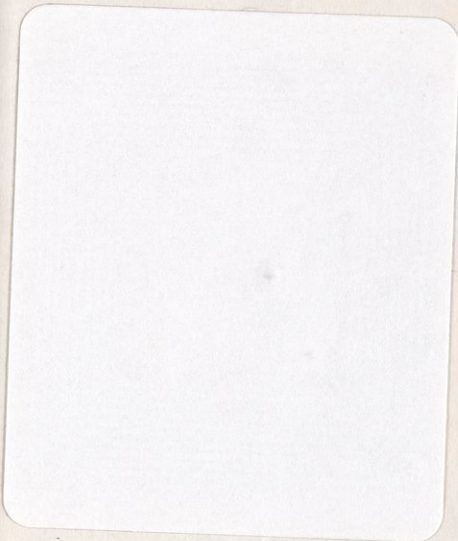
AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01043 6958

19
19
19



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



IO 101-63584

26-6

4N

15

L3612

1913

سِرْطُونُ الْأَمْرِ

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمته من اللغة الفرنسية

أحمد بن زغلول باشا

وكيل نظارة المحفظة

يطلب من ملتزم طبعه ونشره

بمطبعة المعارف

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مطبعة المعارف بشارع الفخالة بمصر

سنة ١٣٣١ - ١٩١٣

90/
L495

901
لغ.س

745

« حقوق الطبع محفوظة للمعرب »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على نعمائه والصلاة والسلام على رسوله وسائر أنبيائه

نقلت الى العربية منذ ثلاث سنين كتاب روح الاجتماع
للدكتور العلامة جوستاف لوبون فاستقبله القراء بالحسنى
وكان واضعه قد سبقه بمؤلف من نوعه سماه سرّ تطوّر الأمم
رجع اليه في مواضع كثيرة من روح الاجتماع . فلما قرأته
رأيت من الواجب أن أقدمه لقراء الكتاب الأول حتى
يجتمع لديهم الفرع بأصله . وقد لا يمضى زمن طويل فأعرض
عليهم كتابين جديدين لهذا العالم الكبير : روح السياسة
وروح الاشتراكية . فالكتب الأربع سلسلة أفكار واحدة
كل كتاب يبرزها في صورة خاصة تمتاز بفائدتها عن البقية
على هذا العزم أمسكت عن تلخيص الكتاب في
مقدمة طويلة وقد أنزع الى مثل ذلك اذا قدر لي الوفاء بالوعد

وأتممت تمثل تلك المبادئ

أحمد فخمى

زغلول

القاهرة في مارس سنة ١٩١٣



سر تطوّر الأمم



مقدمة المؤلف

مذاهب المساواة في العصر الحاضر

وروح التاريخ

نشوء فكرة المساواة وتقدمها — نتائج هذه الفكرة — ما يترتب على العمل بها -- تأثيرها على الجموع في الوقت الحاضر — موضوع هذا الكتاب — البحث عن أهم العوامل في تطور الأمم بوجه عام — هل لعناصر كل مدينة أعنى النظم والفنون والمعتقدات وغيرها روح نفسية خاص بكل أمة — تقلبات التاريخ ونواميسه الثابتة

تبنى مدينة كل أمة على بعض مبادئ أساسية وإلى هذه المبادئ ترجع نظمات تلك الأمة وآدابها وفنونها . وتحتاج المبادئ في تكونها إلى زمن طويل كما أنها لا تندثر إلا بعد زمن طويل

وقد يكون المبدأ فاسداً غير أن فسادَه لا يظهر إلا

لأهل العقول النيرة ولكنه يكون حقيقة ثابتة في نظر الكافة
وتكر العصور وهي تتأثر به وتجري عليه . ومن هنا كان من
الصعب تقرير مذهب جديد أو هدم مذهب قديم مقرر في
الأذهان . والناس يستمسكون عادة بالمذهب القديم كما
يستمسكون بالآلهة وان تقضى زمانهم

غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية
قوته العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون في
الناس فكرة المساواة بين الأفراد وبين الشعوب

خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت في عقولهم
ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس
الجماعات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب في
اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها إلا الله

على أن الفروق بين الفرد والفرد وبين الأمم بعضها
وبعض من الأمور المسامة فلا ينكرها أحد حتى أولئك
الفلاسفة ولكنهم تعجلوا بالاعتقاد أنها ناشئة عن اختلاف
التربية وأن الناس يولدون متساوين في الذكاء وطيب النفس
وأن النظمات هي التي أفسدت عليهم ذلك . ومن يسهل

عليه هذا الاعتقاد لا يصعب عليه إيجاد الدواء . لذلك قالوا
إنه يتم بتغيير النظمات وتوحيد التعليم للجميع . وهكذا
أصبحت النظمات ومسائل التعليم ذخراً لاهل مذاهب الحرية
(الديمقراطية) وعدتهم في زماننا هذا وهى التى يرون فيها
الوسيلة لابطال الفروق التى تجرح مبادئ العصر الحاضر
بعد أن صارت تلك المبادئ من المعبودات

الآن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب
المساواة وأن الهوة التى أوجدها الزمان فى عقول الأفراد
والشعوب لا تزول الآن بتراكم المؤثرات جيلاً بعد جيل . ودل
علم النفس بقدر ما وصل اليه الآن كما أثبتت التجارب أن
النظمات والتربية التى تليق بأفراد أو بأمة قد تضر بأفراد
آخرين أو بأمة أخرى . لكن ليس من مقدور الفلاسفة
إبطال مذهب انساب فى الأذهان يوم يبين لهم أنه غير صواب
فالفكر اذا علق بالنفوس يشبه النهر اذا طغى يفيض ماؤه
من فوق الجسور ويغرق الحقول ويخرب المزارع وما من
شئ يعوق اندفاعه

ما من عالم نفسى ولا من سائح ذى نظر ولا من سياسى

مجرب الآ وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالي أعني
مذهب المساواة الذي قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام في القارة
الأوروبية ثورة ارتج الكون منها وأذكى في القارة الأميركية
نار حرب الأجناس وصير جميع المستعمرات الفرنسية في
حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوجد بين أولئك
المفكرين من يقوم في وجهه بمعارضة ما

ولم يدخل مذهب المساواة حتى الآن في دور السقوط
بل هو لا يزال ينمو ويعظم فهو الذي يدعى الاشتراكيون انه
الوسيلة لاسعاد أُمم الغرب مع أن الظاهر أنه يمشى بتلك الأمم
الى الاستعباد . وباسمه قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل في
الحقوق وفي التربية وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق
العظيمة في القوة العاقلة . وهي اذا فازت بمطلبها جعلت الاوروبي
رجلاً من الرمل لا يعرف له بيتاً بأويه ولا عائداً يسكن البها
أما الأمم فتكاد لا تهتم بما نشأ عن هذه المبادئ من
الانقلابات السياسية والاجتماعية ولا بالتى ستحدثه في المستقبل
مما هو أشد تأثيراً وأعظم ضرراً . وليس رجال السياسة بأكثر
اهتماماً من أممهم بهذه الحوادث لقصر حياتهم في مراكزهم في

هذا الزمان ولأن السيطرة أصبحت للرأى العام فهو القاهر
فوق الحكومات ولا مندوحة لأحد عن اتباعه

ليس لمذهب من المذاهب من الأهمية إلا بمقدار تأثيره
فى نفوس المتخلفين به . أما ما فيه من صواب أو خطأ فمسألة
نظرية لا تهم إلا الحكماء . ومتى دخل مبدأ فى اذهان العامة
وجب الخضوع لنتائجه كلها صواباً كان المبدأ أو خطأ

ومن أجل ذلك نرى أهل مذهب المساواة يسرون
فى تقريره من طريق النظمات والتعليم ويطمعون بذلك
فى تقويم مظالم النواميس الطبيعية وفى صبغ عقول زنوج
(المرتينيك) وسكان (جوادلوب) و (السنغال) وعرب
الجزائر وأهل آسيا بصبغة واحدة وهم فيما ذهبوا اليه واهمون .
فمن المحقق أن خيالهم لن يتحقق . غير أن التجارب وحدها
هى التى تبرهن على ما ينجم عن الخيالات من الشرور . أما
العقل فليس فى استطاعته تحويل الناس عن معتقداتهم

والغرض من هذا الكتاب بيان الأخلاق النفسية التى
تتكون منها روح الشعوب والبرهنة على أن تاريخ الأمة
ومدنياتها منتزعان من هذه الأخلاق . وعليه فأننا سنبحث

في كيفية تكوّن الأمم التاريخية وتربية مزاجها العقلي . ونريد
بالأمم التاريخية الأمم العارضة بعد التاريخ وهي التي كوّنتها
الفتوحات والهجرة والتقلبات السياسية ثم نبين أن تاريخها
مأخوذ من تكوّننها على هذا النحو ونشير الى ما عليه أخلاق
الأمم من الثبات أو التقلب . وننظر هل الأمم وكذا الأفراد
سائرون الى التساوى أو هم سائرون الى الضد بحيث يكثر
التفاوت بينهم وتعظم الفروق . ونرى بعد ذلك هل عناصر
كل مدنية وهي الفنون والنظامات والمعتقدات مظهر من
مظاهر روح أمتها ولذلك لا يتأتى نقلها من أمة الى أخرى .
وننتهي ببيان الحوادث القهرية التي ينطفيء بسببها نبراس
المدنية ويعفو أثرها . ولا نتعرض في أبحاثنا هذه الى التفصيلات
الآن بقدر ما تمس الحاجة اليه لبيان المبادئ وتقريرها اذ كل
ذلك مما أطلعنا شرحه في عدة مؤلفات نشرناها عن المدنية
الشرقية وما هذا السفر الصغير الا خلاصة ما قد فصلناه
أخص ما استجلبته من سياحاتي البعيدة في البلاد المختلفة
هو أن لكل أمة مزاجاً عقلياً ثابتاً كشبات خواصها التشريحية
وهذا المزاج هو الذي تصدر عنه مشاعرها وأفكارها

ونظاماتها ومعتقداتها وفنونها . وقد ظن (توكفيل) وغيره
من كبار المفكرين أن نظامات الأمم أصل في تطورها .
ولكنني على الضد من ذلك أرجو أن أقيم البرهان من أحوال
الأمم التي بحث فيها (توكفيل) على أن تأثير النظامات في المدنية
ضعيف جداً وأنها في الغالب مسببات وقلمما تكون أسباباً
ومما لا شبهة فيه أن تاريخ الأمم يتكون من عناصر
شتى ومن تلك العناصر كثير من الحوادث الفردية والاتفاقات
والعوارض التي كانت وكان يجوز أن لا تكون . الا أن هناك
غير هذه الحوادث العرضية نواميس كلية ثابتة تسير المدنية
في كل أمة بمقتضاها . وأهم هذه النواميس وأعمها وأثبتها هو
المزاج العقلي . وما حياة الأمة أعنى نظاماتها ومعتقداتها
وفنونها الا اللحمة الظاهرة من نسيج روحها . ولا يتسنى
لأمة أن تغير نظاماتها أو معتقداتها أو فنونها الا اذا غيرت
روحها . نعم ليس هذا هو الذي نراه مسطوراً في التاريخ
ولكننا سنبرهن بالسهولة على أن ما فيه مما يخالف نظرنا مبني
على ظواهر لا حقيقة لها

اجتهد المصلحون الذين يتعاقبون منذ قرن في تغيير كل

شيءً فارادوا تغيير المعبودات والأرض وسكانها وهم الى الآن
ما نالوا الا يسيراً من طبائع الأمم التي ثبتها الزمان فيها
ذلك لأن ادراك الفروق الثابتة بين المخلوقات وعلى
الأخص أفراد النوع البشرى ليس مما يتفق مع مذهب
الاشتراكيين في هذا الزمان والعلم ليس بكافٍ وحده في
اقناع رسل مذهب جديد بأنهم فيه واهمون وأن استمساكهم
بآرائهم ناشئ من كونهم يتتبعون خطوات من سبقهم في
البحث عن السعادة الدنيوية التي ما فتئ الانسان يرئو اليها
منذ خلق الله الأرض ومن عليها . فهم يحشون عما اختصت به
بنات (أتيله وهيسبرياس)^(١)

وما أحلام المساواة بأقل قيمة من الأوهام التي جرى
الانسان خلفها قبل ذلك لولا أنها سترتطم بصخرة الفروق
الطبيعية في الناس

واذا أضفت الى هذه الفروق ما ينتاب المرء من الهرم
ثم الفناء رأيت أن ذلك بعض ما ملئ به هذا الوجود من
المظالم الطبيعية التي لا مناص للانسان من حكمها

(١) ثلاث بنات من هذين الابوين يذكر تاريخ الخرافات انه كان لهن
بستان من شجر التفاح ثمره من الذهب الوهاج ويحرسه مارد جبار قتله « هرقل »

الباب الأول

طبائع الشعوب النفسية



لفصل الأول

روح الشعوب



طريقة الطبيعيين في تقسيم الانواع — تطبيق هذه الطريقة على الانسان — بيان العيب في تقسيم الشعوب البشرية الجارى عليه العمل حتى الآن — أساس التقسيم النفسى — المثال الوسط في الشعب — كيف يتوصل الى معرفته بالنظر والاستدلال — العوامل النفسية التى يتكون منها المثال الوسط في الشعوب — تأثير الأجداد والأبوين — الطبائع النفسية العامة التى توجد في كل فرد من أفراد الشعب الواحد — تأثير الاجيال الماضية العظيم على الاجيال الحاضرة — اسباب هذا التأثير على التحقيق — كيف انتشرت روح المجموع من العائلة الى القرية ومن القرية الى المدينة ومنها الى الاقليم — مزايا فكرة المدينة ومضارها — الاحوال التى يتعذر معها تكوين روح للمجموع — مثال ايطاليا — كيف ان الشعوب الطبيعية بادت وحلت محلها الشعوب التاريخية

يبني الطبيعيون تقسيمهم أنواع الكائنات على صفات
وخواص تظهر دائماً في النسل بصورة واحدة . ونحن نعلم
الآن أن هذه الخواص تتحول شيئاً فشيئاً بما يطرأ على النسل
من التغير غير المحسوس . لكن اذا نظرنا الى الزمن التاريخي
وحده جاز لنا القول بأن الأنواع لا تتغير لأن ما عرف من
ذلك الزمن قصير

وقد تمكن الطبيعيون بطريقتهم هذه من تقسيم الانسان
الى أنواع يمتاز بعضها عن بعض تمام الامتياز مستدلين على
ذلك ببعض الفروق الجسمية التامة الواضوح كلون البشرة
وشكل الجمجمة وحجمها . وغلب على الظن أن الجنس البشري
مكون من أصول شتى . ويرى العلماء المحافظون على التقاليد
الدينية أن هذه الأنواع هي القبائل والشعوب . ولقد أصاب
بعضهم حيث قال إنه ان صحَّ عند البعض أن الزنجي
والقوقازي من فصيلة (القولمانيين) فان علماء التكوين
يؤكدون بالاجماع أن هذين القسمين نوعان كبيران لا يجوز
أن يكونا تولدا من زوجين اثنين ثم افترقا عن أصلهما شيئاً
فشيئاً بمرور الزمن

على أن الخواص الجسمانية ولا سيما ما أمكن أن يقع
منها تحت البحث الآن لا تسمح بتقسيم الجنس البشري إلا
إلى أنواع عامة قاصرة جداً لأن الفروق لا تظهر إلا في
الشعوب المتباينة في الخلقة تبايناً عظيماً كالبيض والزنج والحمر
مع أن من الأمم من تتشابه في أجسامها وخلقتها وتختلف
كثيراً في مشاعرها وعملها فتختلف بذلك أيضاً في مدنيّتها
ومعتقداتها وفنونها وليس من المسلم جمع الأسباني والانكليزي
والعربي في نوع واحد لأن الفوارق العقلية الموجودة بينهم
بادية لكل ناظر تقرّأ مسطورة في كل صفحة من تواريحهم
وبنى بعضهم تقسيم الأمم التي لا تظهر فيها الفروق
الجسمانية على مميزات أخرى كاللغة والدين والجامعة السياسية
الآن أن هذا التقسيم لا يحتمل البحث لظهور خطاه

لكن إذا أعجزتنا الخواص الجسمانية واللغات والأقاليم
والجامعة السياسية في تقسيم البشر فإن علم النفس يعيننا على
الوصول إلى غرضنا في هذا الباب إذ يرشدنا إلى وجود بعض
الصفات الأدبية والعقلية التي تؤثر في تطوّر الأمم مستورة
خلف النظم والفنون والمعتقدات والتقلبات السياسية وإلى

أن روح الشعب تتكون من مجموع تلك الصفات
لكل شعب مزاج عقلي ثابت بمقدار ثبوت الخواص
الجسمانية . نعم لا جدال في أنه يوجد بين المزاج العقلي وبين
طبيعة المناخ نسبة . غير أن العلم لم يبلغ من الارتقاء درجة
تعرف بها حقيقة ذلك التركيب فلا يجوز لنا حينئذٍ أن نتخذ
قاعدة لتقسيم الأنواع . على أن معرفة ذلك لن تؤثر في بيان
المزاج العقلي الناشئ عنه كما يدلنا النظر عليه

والصفات الأدبية والعقلية التي يتكون من مجموعها
روح الأمة هي خلاصة ماضيها وميراث أجدادها وعلة حركتها
التي تسير عليها . وقد يظهر أن تلك الصفات مختلفات اختلافاً
كبيراً في أفراد الأمة الواحدة إلا أن الاستقرار يؤيد أن
أغلب أفراد تلك الأمة مشتركون في صفات نفسية عامة
وثابتة ثبات صفاتهم الجسمانية التي يمتاز بها نوعهم عن نوع
أفراد أمة أخرى . والصفات النفسية كالصفات الجسمانية
تجدد مع النسل تجدداً منتظماً مستمراً

ومن مجموع الصفات النفسية التي يشترك فيها أفراد كل
أمة تتكوّن الصفة العامة التي يعبر عنها بخلق الأمة أو الخلق

الملى . وبعبارة أخرى يتكوّن المثال الوسط الذى يمكن اتخاذه
عنواناً للأمة . فاذا أخذنا ألف انجليزى أو ألف فرنساوى
أو ألف صينى حيثما وجدناهم شاهدنا بينهم اختلافاً كبيراً .
لكن أفراد كل جماعة يشتركون مع بعضهم فى صفات عامة
بمقتضى النسل الملى الخاص بهم . وشيوع ذلك فيهم يسهل
تصوّر الرجل الفرنساوى أو الانجليزى أو الصينى فى عمومهم
كما يتصوّر الطبيعيون بواسطة الصفات الجسمانية الفرس أو
الكلب مثلاً لأن الوصف الذى يصفون به هذه الحيوانات
لا يندرج تحته إلاّ الفرس أو الكلب من حيث اشتراك فرد
كل نوع مع غيره من أفراد ذلك النوع فى صفاته الجسمانية
العامة فلا يشمل متفرقات كل نوع أو أحاده المختلفة
ويكفى أن تكون الأمة قديمة قدمها يجعلها ممتزجة المجموع
ليسهل على كل ناظر تمييز المثال الوسط من أفرادها . فاذا
نزل الانسان ببلد فأول ما يستوقفه من أهلها الصفات السائدة
عليهم جميعاً . والسبب فى ذلك كثرة توارد تلك الصفات على
الزائر . وأما الفوارق الشخصية فانها تفوته لعدم تكرارها .
وهذا هو السرّ فى أن الانسان يميز لساعته الانجليزى أو

التلياني أو الاسباني . ويسهل عليه أن يضيف الى الواحد منهم صفات عامة أدبية وعقلية هي تلك الصفات الأولية التي قدمنا ذكرها . وذكر (الانجليزى) أو (الجاسكونى) أو (النورمندى) أو (الفلامندى) يقابل فى الذهب صورة خاصة من مثال معروف من قبل يسهل علينا وصفه وتعريفه . فاذا طبق هذا الوصف على فرد بذاته قد لا يكون جامعاً بل قد يكون غير صواب لكنه اذا طبق على المجموع كان منضبطاً تمام الانضباط . وطريقة بيان المثال الوسط فى أمة بذاتها تشبه فى كونها غير تنبئية تمام الشبه طريقة الطبيعيين فى تقسيم الأنواع

ولوحدة المزاج العقلى عند جمهور كل أمة أسباب بسيطة معروفة فى علم وظائف الأعضاء . فالواقع أن كل فرد ليس ثمرة والديه وحدهما بل هو أيضاً ثمرة أمته أعنى سلسلة أجداده . وقد أحصى أحد العلماء الاقتصاديين وهو موسيو (شيسّوان) أن الفرنساوى يحمل فى جسمه دم عشرين مليوناً على الأقل من معاصرى سنة ١٠٠٠ وذلك باعتبار أن فى كل قرن ثلاثة أجيال . وهو يقول أن جميع سكان كل ناحية أو إقليم يشتركون

حتماً في أجدادهم فهم مخلوقون من طينة واحدة وعليهم كلهم طابع واحد . وهم على الدوام يجذبون الى ذلك المثال الوسط أى الى تلك السلسلة الطويلة الثقيلة التى هم آخر حلقة من حلقاتها . فنحن أبناء آبائنا وشعبنا معاً وليس شعورنا وحده هو الذى يجعلنا نرى الوطن أمماً ثانية بل الشعور والخواص الجسمية والوارثة معاً هى التى تولد فى نفوسنا تلك العاطفة

واذا أردنا ان نعبر عن العوامل التى يخضع الانسان لها فى حركته تعبيراً بسيطاً قلنا انها ثلاثة أنواع . أولها وأشدّها تأثيراً عامل الأجداد . والثانى تأثير الوالدين . والثالث تأثير البيئة وقد ظن بعضهم أن هذا الأخير هو أشدّها فعلاً وهو فى الحقيقة أضعفها . لأن البيئة وما يندرج تحتها من المؤثرات المادية والمعنوية التى تعمل فى الانسان مدة حياته وعلى الاخص فى زمن التربية لا تؤثر فيه إلاّ أثراً ضعيفاً . وانما يعظم أثرها اذا توالى بالتناسل زمناً طويلاً

وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائماً مهما كان عمله . ومجموع الأفكار والمشاعر التى يأتى بها أفراد كل أمة يوم يولدون هى روح تلك الأمة وهى خفية فى ماهيتها ولكنها ظاهرة ظهوراً

كلياً في آثارها لأنها هي الحاكمة في الحقيقة على تطور الأمة .
مثل الأمة كمثل مجموع الخلايا التي يتكوّن منها الفرد الواحد .
حياة تلك الخلايا التي يخطئها العد قصيرة . وحياة الذات
التي تتكوّن منها أكثر دواماً . فلها حياتان حياة ذاتية هي
الخاصة بكل خلية وحياة كلية هي حياة الفرد التي يتكوّن
من مجموعها . كذلك للفرد في الأمة حياة قصيرة هي حياته
الدانية وحياة طويلة هي حياة المجموع الذي يتألف منه ومن
غيره . وهذه الأخيرة هي حياة الأمة التي ولدته والتي هو
عامل من عوامل دوامها والتي هو على الدوام تابع لها

وعليه يجب اعتبار الأمة ذاتاً دائمة مجردة عن الزمان
وتلك الذات تتألف من أفرادها الأحياء الذين يشخصونها في
زمن معلوم ومن سلسلة الأموات الذين هم أجدادها . لذلك
إذا أردنا أن ندرك معنى الأمة الحقيقي ينبغي أن نمتد بها في
الماضي وفي المستقبل معاً . وأشدّ الفريقين قوة هم الأموات
لأنهم هم الأكثر عدداً وهم المؤثرون في عالم الحركات
اللاتنبيهية الذي يخضع لسلطانة العقل والأخلاق في جميع
المظاهر . فالأمة مسيرة بتأثير أمواتها أكثر مما هي مسيرة

(١) هذا الزمن وان كان طويلا بالنظر الى تاريخنا فهو قصير في الواقع لانه لا يضم أكثر من ثلاثين جيلا والسبب في أنه كان كافياً على قلته لتقرير بعض الصفات العامة في الأمة هو ان العلة اذا دام فعلها ردها من الزمن في معلول بذاته أتتجت بالسرعة نتائج كبيرة فقد أثبت علماء الحساب أنه اذا دام فعل المؤثر الواحد زاد تأثيره بنسبة زيادة المتوالية العددية (١ : ٢ : ٣ : ٤ : ٥ وهكذا) وتضاعف الأثر بنسبة المتوالية الهندسية (٢ : ٤ : ٨ : ١٦ وهكذا) فالعلل هي لوغارتمات المعلولات كما أن خانات الشطرنج هي لوغارتمات عدد حبات البر في مسألة تضعيف تلك الحبات بعدد خانات الرقعة وكذلك في المبالغ ذات الرخ المركب يعظم نمو المال بحيث يصير عدد السنين لوغارتم رأس المال المتجمد وبمثل

هذا التكوين ناقصاً جداً وربما كان أهم أثر ترتب على الثورة الفرنسية تعجيل هذا التكوين بأجهازها على الموانع الناتجة من تعدد الجنسيات الصغيرة في قلب الأمة . اذ كان منا (البيكاردي) و (الفلامندى) و (البورجونيونى) و (الجاسكونى) و (البروتونى) و (البروفنسى) وغيرهم من الطوائف التى كانت تتقاسم البلاد الفرنسية فى الزمن الماضى وكلها شعوب مختلفة لكل منها مشاعر وأفكار تميزه عن غيره فلم يكن من السهل جعل الوحدة تامة . وهذا هو السبب فى كثرة الخلف وقيام النزاع بيننا فى أغلب الاوقات مما لا تعرفه أمة ذات وحدة كاملة كالأمة الانجليزية . هناك امتزج السكسونى والنورمندى والبروتونى فكوّنوا عنصراً متشابهاً فترى كل شئ فى حياة الأمة متشابهاً وبسبب هذا الامتزاج تمكنت عند القوم الأسس الثلاثة التى يتكوّن روح الأمة منها وهى : مشاعر عامة . ومنافع عامة . ومعتقدات

تلك الأسباب يمكن الدلالة على سير أغلب الحوادث الاجتماعية بمنحنيات هندسية تحكى ذلك التضعيف وقد توصلت فى موضع آخر الى بيان أن هذه المنحنيات يمكن تحليلها بواسطة عملية القطع المكافئ أو القطع الزائد ويرى موسيو شيسون أن ذلك يكون أسهل بواسطة العملية ذات الأس المتغير

عامة . ومتى بلغت أمة هذه الدرجة من الوحدة القومية اتحد جميع أفرادها بدون انتباه خاص على جميع مرافقها المهمة وانتفت من بينهم أسباب الخلف الكبير

وحدة المشاعر والأفكار والمعتقدات والمنافع الناشئة من كرور الدهور تقوى في الأمة وحدة المزاج العقلي وتزيد في ثباته وتحصل للأمة سلطاناً كبيراً . بهذا بلغت روما أوج عظمتها في غابر الزمان وبه ارتفعت انكاثره الى أعلى سلم مجدها في هذه الأيام . ومتى زالت هذه الوحدة انفرط عقد الأمة وكذلك سقطت صولة الرومان يوم أضاعوها

كان لكل أمة في كل زمان نصيب من تلك المشاعر والأفكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التي يتكون منها روح المجاميع البشرية إلا أن نموها سار سيراً بطيئاً . وكان وجود الروح أولاً في العائلة ثم انتشر منها في القرية ثم في المدينة ثم في الأقليم ولم يعم جميع السكان إلا في أزمان قريبة منا . هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا في هذا العصر لأنها لا تصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الإغريق الى أبعد من فكرة المدينة ودامت

مدائنهم في حرب مستمر لأن كل واحدة منها كانت أجنبية
في الواقع عن البقية . كذلك لم تعرف الهند منذ ألفي عام غير
وحدة القرية فعاشت من ذلك الحين تحت حكم الأجنبي تقوم
فيها ممالكه بسهولة كما تدول بسهولة

فكرة المدينة كوطن خاص ضعيفة من حيث القوة
الحربية ولكنها كانت دائماً شديدة الأثر في ارتقاء الحضارة
ومع كون روح المدينة أصغر من روح الوطن فهي أغزر
مادة وأعظم ثمرة فلقد دلتنا آثينا في الزمن القديم وفلورنس
والبنديقية في الأزمان الوسطى على درجة الحضارة والرقى التي
تصل إليها الجموع البشرية الصغيرة

ومتى طال الزمن على المدن الصغيرة والأقاليم الصغيرة
وهي مستقلة عن بعضها تتولد في كل منها روح ثابتة يتعذر
معها غالباً مزج بعضها ببعض ليتكون في مجموعها روح ملی
واحد . وإذا تيسر ذلك أحياناً بأن لم يكن هناك من الفوارق
الكبيرة ما يحول دون تحقيقه فهو لا يتم في أيام بل لا بدَّ
له من قرون عدة . ولا بدَّ للقيام بمثل هذا العمل من أمثال
(ريشليو) و (بسمارك) على أنهم لا قبل لهم به إلا إذا هيأته

الأيام . ولقد يتأتى لبلد مثل إيطاليا أن تصير فجأة دولة واحدة بتأثير العوامل الاستثنائية إلا أن من الخطأ الاعتقاد بأنها تنال بهذا روحاً ملياً . وأنا لا أزال أرى في إيطاليا هذا (البييمونتي) وذاك (الصقلي) وذلك (البندقي) و (الروماني) وغيرهم ولكني لا أرى (الايتالي)

كل أمة دخلت في ميدان الحضارة وأصبحت ذات تاريخ قديم يجب اعتبارها أمة صناعية لا أمة طبيعية مهما كانت حالها أعنى سواء اتحدت عناصرها أم لا . إذ الأمم الطبيعية لا يكاد يكون لها وجود في العصر الحاضر اللهم إلا في البلاد المتوحشة . هناك يتيسر العثور على أمم خالية من الخليط . وأما أكثر الأمم المتحضرة الآن فأمم تاريخية وليس من موضوعنا أن نبحث في أصل الأمم فسواء عندنا كوّنتها الطبيعة أو التاريخ . وإنما الذي يهمنا منها هي الصفات التي حدثت لكل واحدة منها بمرور الزمان الطويل عليها واستقرت عدة قرون في أحوال واحدة وتجمدت بالتناسل جيلاً بعد جيل وأصبحت ثابتة ثباتاً كبيراً وصلحت لتمييز كل أمة عن أختها

الفصل الثانى

حدود تغيير أخلاق الأمة

تغير خلق الامة هو القاعدة الظاهرة الثبات — سبب ذلك — ثبات
الخلق الأصلى وتغير الخلق الثانوى — مقابلة الصفات النفسية بالصفات الحيوانية
الثابتة والصفات المتغيرة — فى أن تأثير البيئة والحوادث والتربية قاصر على
الصفات النفسية الثانوية — تطور الصفات — أمثلة لذلك فى أزمان مختلفة —
رجال الهول الأكبر — ماذا كان يكون شأنهم فى زمن غير زمانهم — كيف
أن الصفات القومية تبقى بعد الثورة — أمثلة مختلفة — الخلاصة

انعام النظر فى تطور حضارة الأمم هو الذى يدلنا على
درجة ثبات مزاجها العقلى . وأول ما يخيّل للباحث أن القاعدة
العامة فى ذلك هى التغير لا الدوام . فمن لم يقرأ التاريخ بامعان
يظهر له أن روح الأمة قابل فى بعض الأحيان لتغير عظيم
سريع . والكافة يحسبون أن هناك فرقاً كبيراً بين صفات
الانجليزى فى عهد (كرامويل) وصفاته فى العصر الحاضر
وكذلك بين التليانى الحاضر ذى الحذر والحيلة وبين التليانى
المندفع المقترس الذى يصفه (بينفينتو سليلنى) وعندنا ما هو

أقرب من ذلك أريد فرنسا . فكم من تغير ظاهري حدث
في صفاتنا منذ عدد قليل من القرون بل من السنين . وأى
مؤرخ لم يشر الى الفرق الموجود بين خلق الأمة في القرنين
السابع عشر والثامن عشر . كذلك يشاهد فرق عظيم في أيامنا
بين وحوش (العهد) ^(١) وعبيد نابليون الطائعين وأولئك هم
هؤلاء ولكن يخيّل أنهم بدلوا بآخرين فى بضع سنين

ولكى نوضح أسباب هذه التقلبات ينبغى أن نذكر
القراء بأن النوع النفسى يتركب كالنوع الجسمانى من صفات
أساسية ثابتة قليلة العدد وأن بجانب هذه الصفات صفات
أخرى ثانوية متغيرة وقابلة للتحول . فالثور يتغير ظاهره
بالعلف والزهر يتكيف بفعل البستاني حتى تغيب حقيقته عن
غير ذى الخبرة والثور والزهر لا يزالان كما كانا من حيث
صفات النوع الأساسية وإنما كان التغير فى صفاته الثانوية .
ولا تزال الصفات الأولى ميالة على الدوام الى الظهور فى كل
نسل جديد بالرغم من جميع الحيل التى يعالج النوع بها

(١) يريد فريقاً من الفرنسيين أداروا الحكومة زمناً أيام الثورة

وكانوا قساة

كذلك للمزاج العقلي صفات أساسية ثابتة كصفات
الأنواع الجسمانية . وله أيضاً صفات ثانوية تتغير بالسهولة
وهذه الأخيرة هي التي تتأثر بفعل البيئة والحوادث والتربية
وغير ذلك من العوامل

ولا يغيب عنا أمر مهم في هذا الموضوع ذلك أن
للمزاج العقلي مقدورات وان شئت فقل قابليات أخلاقية
لا تظهر في كثير من الأوقات لعدم ملائمة الأحوال
لظهورها . فإذا اصطلحت تلك الأحوال ظهر من خلالها
شخصية جديدة في الأمة لكنها عرضية لا تدوم إلا وقتاً
محدوداً . لذلك شوهد في أيام المحن الدينية والسياسية
الكبرى أن الأمة ظهرت بمظهر جديد يخيل للناظرين أنه
ناشئ من تغير عظيم في خلقها الملى كأن انقلاباً حصل في
أخلاقها وأفكارها وحركتها إلا أنه تغير عرضي ما لبث أن
زال . والذي خيل في بادئ الأمر كان طارئاً كما يضطرب
وجه البحيرة الهادئة من فعل العاصفة ولا يدوم هذا
الاضطراب زمناً كبيراً

والقابليات التي ظهرت في بعض الأزمان بفعل الحوادث

الاستثنائية هي التي مثلت لنا الذين لعبوا دوراً مشهوداً في
الانقلابات السياسية والدينية كأنهم مخلوقون من طينة أخرى
فكانوا في نظرنا عمالقة ونحن أبناءهم الفاسدون . وما كانوا
الآ رجالاً مثلنا صادقهم حوادث حركت فيهم تلك القابليات
التي نشترك معهم فيها . مثال ذلك غيلان (العهد) الذين وقفوا
في وجه أوروبا المدججة . فقد بلغت منهم قساوة القلب الى
أنهم كانوا يقدمون خصومهم الى المقصلة لأدنى خلف بينهم وهم
في الحقيقة أناس من أواسط الأمة الطيبين أولى السكينة مثلنا .
ولولا الزمان لوجدناهم مطمئنين الى صناعتهم أو تجارتهم أو
زراعتهم أو الحرفة التي كانوا فيها من قبل يعملون . لكن
حوادث خارقة أثارت في أعماخهم بعض الخلايا التي كانت
هادئة في الزمن العادي فبرزوا في تلك الصورة الهائلة التي
يقصر السلف عن ادراكها ولو أن (روبسبير) وجد بعد مائة
عام من زمنه لكان قاضياً من أتقى قضاة الصلاح صديقاً لشماس
قرية وكذلك (فوكيه تينفيل) كان يكون قاضياً للتحقيق
يطارد الجناة ويشد الخناق على المجرمين بصرامة أكبر وقساوة
أعظم مما كان عليه أقرانه و (سان جوست) كان يكون معاماً

ماهرًا في المدرسة ذا حرمة لدى الرؤساء نفورًا بنيشان المجمع
العلمي الذي كان يحوزه لا محالة . وحتى لا يكون في نفس
القارئ شك من صحة هذه الفرضيات يكفي أن نلقته الى
ما فعل نابليون بأولئك الوحوش الذين لم يمهلم الزمان ليقتل
بعضهم بعضًا فقد كان من أمرهم معه أن صار أغلبهم عمالًا في
أقلام كتاب المصالح ومحصلين وقضاة ومديرين لأن الأمواج
التي هاجتها العاصفة التي أشرنا اليها كانت قد سكنت وعادت
البحيرة المضطربة الى هدوها

لا تتغير صفات الأمة الأساسية حتى في أشد أوقات
الاضطراب والحن التي تظهر فيها الأمة بمظهر التغير الكلي
في شخصيتها وغاية ما هناك أن تلك الصفات تبدو في ثوب
غير ثوبها الأول فلما أراد أهل الثورة أن يقضوا على طريقة
الحكم السابق وضعوا للأمة نظامًا قبضت فيه السلطة العليا
على جميع اختصاصات الحاكمين فكان روح نظامهم هذا متفقًا
مع روح النظام الاستبدادي المبني على الأثرة وجمع السلطة
في اليد العليا وهو الذي امتزج بروح فرنسا في عهد ملوكها
المطلقين مدى خمسة عشر قرنًا

ما من ثورة قامت في البلاد اللاتينية الا وظهر خلفها ذلك النظام العتيد وبعبارة أخرى ذلك الميل المتأصل العضال أريد ميل النفوس الى الخنوع لحاكم قادر . والسبب في ذلك ثبات جذور ذلك الميل في النفوس حتى أصبح جزءاً من روح الأمة . ولولا هذا الروح لما ساد نابوليون بهاء الفتوحات التي جرت على يده . ألا ترى أنه لما استعاض الجمهوريه بسيطرته أخذت صفات الأمة الوراثية تظهر كل يوم بقوة أشد وكان لا بد من ذلك فلو لم يقم بالأمر حينئذ ذلك الضابط المدرب لقام به واحد من الأفاكين . وبعد مضي خمسين عاماً قام وارث اسمه فما ظهر في الناس حتى صبوا اليه أجمعين والتفت حوله أمة تعبت من الحرية وتاهت على الاسترقاق . اذن ليس شهر (بريمير)^(١) هو الذي أقام صرح نابليون لكنه روح أمته التي أقبلت راكعة أمام قدميه الحديديتين^(٢)

(١) اسم الشهر الذي حصل فيه الانقلاب

(٢) كتب (تايين) يقول « ما تحرك حركته الاولى حتى خر فرنساويون ركعاً طائعين وأقاموا على ذلك كما يقيم المرء على حاله الفطري فأما الأصغر من جند وفلاحين فقد أشبهوا الحيوان في اخلاصه وأما الأكابر من أولى الرتب وأرباب الوظائف فانهم استدلوا ذلة البيزنطيين وما قاوم الجمهوريون أبداً بل انه اتخذ من بين صفوفهم أصلح الوسائل لتأييد سلطانه فكان له منهم الأعيان في

والسبب في أن أثر البيئة في الانسان يظهر عظيمًا هو كون محله الصفات الثانوية الوقتية أو هي القابليات الأخلاقية التي سبقت الإشارة إليها . فالتمغير ليس جوهريًا بدليل أن أخذ الناس الى السكنينة اذا عضه الجوع أصبح لا يبقى على شئ ولا يحجم أمام أية جريمة كانت بل ربما اقترس مثيله ولا يقال مع ذلك أن طبعه الأصلي تبدل بطبع جديد اذا نتج عن الحضارة في الأمة أن صار أفرادها في ثروة طائلة ومالوا الى اللذات والشهوات التي هي أثر من آثار الغنى وتولد في الآخرين حاجات كبيرة من دون أن يكون لهم من الوسائل ما يسدونها به . اذا تم ذلك استاء الناس وتولاهم الحرج وتأثرت حركة الأمة وحدثت انقلابات من صنوف شتى لكن صفات الأمة الأساسية تبقى بادية وسط هذا الاستياء وتلك الانقلابات . بدليل أن انجليز الولايات المتحدة أظهروا

محاسنهم والنواب في ندوتهم ومستشارو الدولة وقضاة المحاكم والولاة من جميع الطبقات . أدرك من أول نظرة في بقايا حريتهم ومساواتهم ما فيهم من الميل الى السلطة وحب الاستعلاء والتفوق حتى وهم مسودون وعرف جشعهم للمال وانطباعهم على اللذات سيات في ذلك العضو في جمعية سلامة الأمة والوزير والمدير وحكام الأخطاط فالكل رجل واحد في ثوبين ثوب فطرى وثوب مزركش »

في حروبهم الأهلية ما امتازوا به من المشارة وقوة العزيمة كما
هم يظهرون ذلك الآن في تخطيط المدن وانشاء المدارس
الجامعة والمصانع الكبرى فالصفة لم تتغير وانما الذي تغير
هو محل ظهورها

والخلاصة أننا اذا نظرنا الى جميع العوامل التي لها تأثير
في مزاج الأمة العقلي رأينا ذلك التأثير دائماً في الجهة الثانوية
منه وقاما يكون في مميزاته الأساسية واذا أثر فيها فذلك
لا يظهر الا اذا دام المؤثر زمناً طويلاً . ولسنا نذهب الى أن
صفات الأمم النفسية غير قابلة للتغير . بل الذي نريد تقريره
هو أن تلك الصفات على درجة كبيرة من الثبات وأن مثلها
في ذلك مثل الصفات الجسمية وأن هذا الثبات هو العلة في
بطء تحول خلق الأمة في بطون الليالي والأيام

لفصل الثالث

الطبقات النفسية للأمم

تقسيم الأمم النفسى كالتقسيم الطبيعى مبنى على بعض صفات أصلية ثابتة — فى بيان تقسيم الأمم النفسى — الأمم الأولى — الأمم الدنيا — الأمم الوسطى — الأمم العليا (الراقية) — العناصر النفسية التى بنى عليها هذا التقسيم — الخلق — الأدب — فى أن الصفات العقلية تتغير بالتربية — فى أن الصفات الأخلاقية ثابتة وهى العنصر غير القابل للتغير فى الأمة — شأن تلك الصفات فى التاريخ — السبب فى أن الأمم المختلفة لا تفاهم ولا تتأثر الواحدة منها بالأخرى — السبب فى استحالة غرس حضارة أمة راقية فى أمة واطئة

إذا راجعنا فى أحد كتب التاريخ الطبيعى قواعد تقسيم الأنواع علمنا أن الصفات الثابتة أى الأساسية التى يبنى عليها ذلك التقسيم قليلة العدد جداً يكفى بعض أسطر لسردها . وسببه أن العلماء لا يعتمدون فى ذلك إلا على الصفات التى لا تتغير ولا يلتفتون الى الصفات الثانوية مهما كثرت وكانت منتزعة منها

كذلك الحال فى صفات الأمم النفسية فاذا بحثنا فى

التفاصيل وجدنا فروقا كثيرة بين فرد وآخر وأمة وأمة .
واذا رجعنا الى الصفات الأولية وحدها رأيناها قليلة . وسنأتى
بأمثلة توضح كيف أن تلك الصفات القليلة هي التي تؤثر في
حياة الأمم

ولما كان بيان قواعد تقسيم الأمم النفسية متوقفاً على
البحث في الأحوال النفسية لكل أمة وذلك يقتضى وضع
مؤلفات كثيرة فقد اقتصرنا هنا على بيان تلك القواعد بوجه عام
تنقسم الأمم من حيث صفاتها الأخلاقية العامة الى أربعة
أقسام : الأمم الأولى — الأمم الدنيا — الأمم الوسطى —
الأمم الراقية

والأمم الأولى هي التي لا أثر للتعليم عندها بل بقيت
في طورها القريب من الحيوانية وهو الطور الذي قطعه
أجدادنا في دورهم الحجري القديم ويمثل لتلك الأمم في هذه
الأيام بأهل (فويجيان)^(١) وأستراليا

وبلى تلك الأمم الأمم الدنيا . وأخص مثال لها الزنوج
وفيهم بصيص حضارة لكن ليس عندهم أكثر من بصيص

(١) احدى جزر الرأس الأخضر بالمحيط الاطلانطيق وسكانها ١١٠٠٠ نسمة

وتاريخهم يدل على أنهم لم يتمكنوا من الارتقاء الى أكثر من حضارة بربرية وان ورثوا في بعض الأحوال عن غيرهم حضارة أرقى كما وقع لأهل (دومينيغ)^(١)

ثم الأمم الوسطى وهى الصين واليابان والمغول والأمم السامية . وهذه الأمم بلغت من الحضارة درجة راقية لم يفهم فيها غير الأمم الأوروبية الراقية . وأما الأمم الراقية فلا يندرج فيها الا الأمم الهندوسية الأوروبية فهى وحدها التى أظهرت مقدرة على الاختراعات فى الفنون والعلوم والصناعة سواء كان ذلك فى الزمن القديم زمن اليونان والرومان أو فى عصرنا هذا وهى التى أوصلت الحضارة الى درجة ارتقاءها الحالى وهى التى اكتشفت البخار والكهرباء . وأقل هذه الأمم ارتقاءً كالهندوس على الأخص بلغت من الفنون وعلوم الأدب والفلسفة حدًا لم تتمكن أمم المغول والصين ولا الأمم السامية من اللحاق بهم فيه

تتماز هذه الأقسام الأربعة عن بعضها بحيث لا يخطئ أحد فى تمييزها فان التباين العقلى بين بعضها والبعض الآخر

(١) جزيرة أخرى فى المحيط المذكور

واضح جلي . وانما الصعوبة تبدو عندما يراد تقسيم أمم كل قسم الى أنواع وفروع . فالإنجليزى والاسبانى والروسى من الأمم الراقية ولكننا نعلم أن الفرق عظيم بين هؤلاء وهؤلاء . ومن أراد استجلاء هذه الفروق ينبغي له أن يقرر حقيقة خلق كل أمة على قدرتها . وسنعمل ذلك فى أمتين على سبيل التمثيل لهذه النظرية ولبیان أهمية تأثيرها مكتفين فى ذلك ببيان حقيقة العناصر النفسية الرئيسية التى توصلنا الى التفرقة بين بعض الشعوب والبعض الآخر

مما يشاهد دائماً فى الأمم الأولى والدنيا عدم قدرتها على التعقل مع تفاوت فى ذلك . وأعنى بذلك قدرة الذهن على جمع الأفكار المتحصلة من المحسوسات السابقة أو الألفاظ التى تدل عليها ومقابلتها بالأفكار المتحصلة من المحسوسات الحالية واستجلاء الفرق بين الحالىين . ولسنا فى حاجة الى أن نذهب الى المتوحشين لنلتقى بتلك الأمم لأن الطبقات النازلة عند الأمم الأوروبية نفسها شبيهة بالأمم الأولى شبيهاً كاملاً . وسبب عدم القدرة على التعقل عند تلك الأمم سرعة التصديق وفقدان ملكة النقد فقداناً تاماً . بخلاف الانسان

الراقي فان ملكة جمع الافكار واستخلاص نتائجها قوية فيه
وملكة النقد وتحرير المعقول نامية للغاية

كذلك نرى ملكة التنبيه والتأمل ضعيفة جداً في الأمم
الدنيا وملكة التقليد نامية جداً. ومن عاداتهم استنتاج النتائج
الباطلة العامة من الجزئيات وهم ضعاف في النظر وفي استجلاء
نتائج الاستقراء وأخلاقهم متقلبة وعدم تبصرهم عظيم وقاعدة
عملهم ما يعرض لهم من الالهام وقت العمل فثلمهم مثل
(عيسوى)^(١) يبيعون عن طيب خاطر حقوق البكورة الآجلة
بطبق من العدس العاجل. انما يخطو الانسان خطوة كبيرة
في سبيل رقيه متى تمكن من ردّ منفعة عاجلة لمنفعة آجلة
وجعل لنفسه غرضاً ثم أقام في طلبه

وعدم القدرة على تصوّر النتائج البعيدة المترتبة على الأعمال
والميل الى الاسترشاد بالهام الساعة التي يوجد المرء فيها يقضيان
عليه كما يقضيان على الأمة كلها بالبقاء في حالة التأخر. وهما
لا يخرجان من تلك الحال الا اذا تمكنا من الحكم على ميولهما

(١) هو من ولد اسحاق ولد سنة ١٨٣٦ قبل المسيح وكان أكبر اخوته
ذهب للصيد ذات يوم فعضه الجوع فالتقى بأخيه وكان يحمل طبقاً من العدس
فاشتراه منه مقابل تنازله له عن حقوق الأولوية التي له بمقتضى كونه بكر أبيه

وبعبارة ثانية اذا اكتسبا ارادة يتمكنان بها من امتلاك
نفسيهما . هنالك تصل الأمة الى فهم معنى النظام وضرورة
التضحية في سبيل مطلب معروف والصعود على سلم الحضارة
ولو أنى سئلت عن مقياس يقاس به مستوى كل أمة بالنسبة
لغيرها منذ عرف التاريخ لأشرت الى درجة اقتدار كل أمة
على حكم نزعاتها اللاتنبيهية ولقلت ان الرومان في العصور الخالية
والانكليز والأمريكان في الزمن الحاضر هما الأمتان اللتان
بلغت فيهما هذه المقدرة منهاها وقد كان لها شأن كبير جداً
فيما وصلا اليه من الارتقاء والعظمة

قلنا ان المزاج العقلي نتيجة مجموع العناصر النفسية التي
قدمنا ذكرها ودرجة نمو ذلك المجموع وان ذلك المزاج هو
الوسيلة في تمييز الأفراد والأمم

ومن تلك العناصر النفسية ما هو راجع الى الخلق
ومنها ما هو راجع الى الذكاء

فأما الأمم الراقية فتتفرق عن غيرها في الأمرين .
ولكن الفارق الأساسي بين أنواع هذه الأمم الراقية هو
الخلق . تلك نظرية ذات أهمية اجتماعية كبرى . لذلك وجب

أن نوفي القول في بيانها

يتكوّن الخلق من اجتماع بعض العناصر المخصوصة
وامتزاجها ببعضها . وتلك العناصر هي التي جرى علماء النفس
في هذا العصر على تسميتها بالمشاعر . وأهمّ المشاعر في تكوين
الخلق المباشرة وقوة العزيمة والقدرة على حكم النفس وكلها
ملكات راجعة الى الارادة . ونذكر أيضاً من تلك العوامل
الأساسية الأدب وان كان هو فينا خلاصة مشاعر مختلفة .
ونريد بالأدب ذلك الاحترام الوراثي للنواميس التي تقوم عليها
حياة الأمة بمعنى كون الأمة ذات أدب أن لها قواعد ثابتة
تسير عليها وأنها لا تنفك عن مراعاة تلك القواعد . وهذه
القواعد تتغير بتغير الأزمان والأمكنة . ومن ذلك يظهر أن
الأدب متغير وهو في الواقع كذلك . وإنما الذي يجب له هو
أن تلزمه الأمة الواحدة في الزمن المعين . والأدب ابن الخلق
فهو لا يثبت إلا اذا صار وراثياً أعني غير تنبهي . وعظمة
الأمة تابعة على وجه العموم لدرجة ارتقاء الأدب فيها
وللصفات العقلية قابلية صغيرة للتغير بتأثير التربية .
وأما الصفات الاخلاقية فيكاد أن لا يكون للتربية أثر فيها

وإذا أثرت ففي ذوى الطباع الهينة أى الذين لا ارادة لهم فهم
يميلون الى حيث يوجهون . ويكثر وجود هذه الطباع الهينة
فى الأفراد ولكنها قلما توجد فى أمة بأكملها . وإذا شوهدت
فى أمة من الأمم فانما يكون ذلك فى أيام سقوطها

تنتقل الاكتشافات العقلية بالسهولة من أمة الى
أخرى وأما آثار الخلق فلا تتعدى أمتها . لأنها العناصر
الأساسية الثابتة التى يتميز بها المزاج العقلى فى كل أمة راقية .
ومن هنا كانت الاكتشافات العقلية ملكاً شائعاً للانسان
أنى وجد . وأما آثار خلق كل أمة طيبة كانت أو رديئة فخاصة
بالأمة التى هى فيها ومثل الخلق مثل الصخرة لا تؤثر فيها
الأمواج على تعاقب الأيام الأ قليلاً فى حاقها والخلق شبيه
بالعنصر الثابت لكل نوع من أنواع الكائنات كمسبح
الأسماك ومنقار الطير وسن الحيوان المفترس

خلق كل أمة هو علة تطورها فى حياتها وهو الذى
يقرر مستقبلها وهو موجود على الدوام خلف العوامل التى
فرضها الناس سبباً لأعمالهم فقالوا بالاتفاق وهو لا حول له
ولا قوة وبالرحمة وهى أمر خيالى وبالمقدور المحقق وهكذا

اتخذته الأمم ناموساً في حياتها على حسب اختلاف المعتقدات
تأثير الخلق في حياة الأمم عظيم . وأما تأثير العقل
فضعيف على تفاوت فيه . ولقد كان الرومان أيام سقوطهم
ذوى عقول أرقى من عقول أجدادهم القاهرين ولكنهم
سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقية فأضاعوا المثابة
والعزيمة والجلد الذى لا يعرف الوهن . وفقدوا القدرة على
التفانى في نصرة المطلب واحترام القوانين الى حد التقديس .
وتلك الصفات هى التى كانت السبب في عظمة آبائهم
الأولين

له مقال الخلق هو الذى يمكن ستين ألف انجليزى من إخضاع
مائتين وخمسين مليوناً من الهنود وكثير من هؤلاء في
مستوى واحد معهم من حيث العقل وبعضهم يفوقونهم جداً
في الفنون الراقية وغور المباحث الفلسفية والخلق هو الذى
جعلهم على رأس مملكة استعمارية هائلة لم يعرف التاريخ نظيراً
لها حتى الآن

الخلق لا العقل هو الذى تقوم عليه الجمعيات البشرية
وتؤسس الديانات وتبنى الممالك وهو الذى يجعل الأمم تحس

وتعمل وما كان كسب الأمم كثيراً من شحذ الأذهان
والتعمق في التفكير^(١)

المزاج العقلي هو الذي يرشد الأمة الى تكوين فكرتها
في الوجود وفي الحياة وعلى حسب صورة ذلك عندها تختط
لنفسها طريقاً تسير فيه وسنأتى فيما بعد بأمثلة تقرب ذلك
الى الأذهان . كل انسان يتأثر بالأشياء الخارجة عنه تأثراً
خاصاً به فيتولد فيه من ذلك شعور خاص وفكر خاص ويندفع

(١) السبب في شدة ضعف أعمال علماء النفس الذين اتخذوا هذا العلم
صناعة لهم وقلة آثارهم العملية هو على الأخص قصرهم مباحثهم على المسائل العقلية
وانصرافهم عن البحث في المسائل الاخلاقية وكأنى لا أعرف ممن أشار الى أهمية
الخلق وكونه أصلاً في تكوين مزاج الأمم العقلى غير موسيو (يوهان) في
رسالة (الأخلاق) وموسيو (ريبو) في وريقات جاءت لسوء الحظ قصيرة
جداً . قال هذا العلامة الأستاذ بمدرسة فرنسا « انما الذكاء صورة ثانوية من
صور تطور العقل والعنصر الأساسى هو الخلق ونتيجة الأول اذا نمت نمواً كبيراً
أعدام الخلق غالباً فيذغى لبيان أحوال الأمم النفسية ومقارنتها ببعضها أن نديم
البحث في الخلق كما ذهبنا اليه هنا لان أهمية هذا العلم لا تخفى فهو مصدر تاريخ
الأمم ومرشد سواها ولولا أنه لا ينال في المعامل الكيماوية ولا يوجد في
بطون الكتب وانما ينال بالأسفار الطويلة والوقوف على أحوال الامم لكان من
العجب العجيب أن العلماء لم يشتغلوا بتدوينه الى اليوم بل ليس هناك ما يدلنا على
قرب اشتغال مصنفى علم النفس به . فانهم يتركون الآن شيئاً فشيئاً ما عكفوا
عليه من قبل ويقصرون أبحاثهم على مسائل تتعلق بعلمى التشريح والفسولوجيه »

الى العمل على نحو خاص مخالفًا في هذا كله ما يجري عليه غيره
ممن يفترق عنه في مزاجه العقلي . وينتج من ذلك أن من
افترقوا في أمزجتهم العقلية لا يتأتى لبعضهم أن يدرك كنه
بعض . واختلاف الأخلاق هو علة استمرار التنافر بين الأمم
ومن المتعذر استفادة شيء من التاريخ اذا لم يكن طالب الفائدة
عالمًا أن الأمم المختلفة لا تشترك مع بعضها في الشعور ولا
في المعقول ولا في العمل وأنه لذلك لا يتأتى لبعضها أن يفهم
بعضًا . نعم في لغات الأمم المختلفة ألفاظ متشابهات يظنونها
 مترادفات غير أن تلك الألفاظ على اشتراكها تحدث في
نفس كل أمة مشاعر وأفكارًا ومعقولات غير ما تثيره من
ذلك في الأخرى . ولا يعرف الانسان مقدار الفرق العظيم
بين أفكار الأمم المختلفة إلا اذا طالت عشرته لقوم غير قومه
حتى ولو لم يعرف منهم إلا من تكلم لغته وتربى تربيته .
ويمكن الوقوف على ذلك أيضًا من غير اغتراب بالمقارنة بين
الرجل المتحضر وبين المرأة المتحضرة ومعرفة الفرق العظيم
بينهما من الجهة العقلية . فهما ارتقت درجة المرأة في التعليم
يرى الباحث أنهما قد يشتركان في المصالح ويتحدان في المشاعر

ولكنهما لا يتفقان مطلقاً في تسلسل المعقولات وقد يتحدان
قروناً ولا يتفقان لأن لكل واحد منهما مزاجاً يخالف مزاج
الآخر مخالفة تامة فلا يتأثر بالأشياء الخارجة عنه كما يتأثر
رفيقه . ولو لم يكن بينهما من الفروق إلا اختلاف معقوليهما
لكفى بذلك مانعاً من الاتفاق

ذلك الفرق العظيم في المزاج العقلي هو الذي يوضح علة
عدم نجاح الأمم الراقية في نقل حضارتها الى أمم أدنى منها
قال أصحاب نظرية سيادة العقل الصرف ان التعليم ينجح
في هذا السبيل ولا يزال قولهم مرعياً لدى الكافة ولست أعرف
لهؤلاء الفلاسفة مذهباً أسوأ تأثيراً من هذا الرأي ولا أشد
ضرراً . نعم يجوز أن يحرز أخط الأفراد في سلم الانسانية
جميع معلومات الأوروبي كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة
التي اختص بها الأفراد الأدنون وليست هي من مميزات
الرجال ومن المسلم أن نيل الزنجي أو الياباني الشهادة الثانوية
أو رتبة المحاماة أمر ميسور ولكنه لا ينال بذلك إلا طلاءً
سطحياً لا تأثير له في مزاجه العقلي . وأما كيفيات التفكير
والمعقولية وعلى الأخص أخلاق الغربيين فليس في قدرة

التعليم مهما كان أن يحصلها له لأنها لا تنال إلا بالوراثة . ولذلك
الزنجي أو هذا الياباني أن ينال جميع الشهادات الممكنة لكنه
لن يرقى مطلقاً بذلك إلى صف الأوروبي العادي . ففي عشر
سنين يمكن تلقينه التعليم الذي يتلقاه انكليزي تام التهذيب
ولكن ألف سنة قد لا تكفي لصيرورته انكليزياً حقيقياً أعني
رجلاً يعمل كما يعمل الانكليزي في جميع أطوار الحياة . وعليه
إذا غيرت أمة بسهولة لغتها أو نظامها أو معتقداتها أو فنونها
فإنما يكون التغيير سطحياً ولا يكون جوهرياً إلا إذا تسر لها
أولاً تغيير روحها

لفصل الرابع

درجات الفروق بين الأفراد والأمم

كلما ارتقت الأمة عظمت الفروق بين أفرادها والبعض الآخر — في أن أفراد الأمم الدنيا متساوون في القوة العاقلة — لاجل معرفة الفروق بين الأمم يجب ان تكون المقارنة بين طبقاتها العليا لا الوسطى — في أن تقدم الحضارة يزيد في الفروق التي بين الأفراد والتي بين الأمم — نتيجة هذا الفارق — في الأسباب النفسية التي تمنع اتساع هذا الفارق — في أن الفرق عظيم جداً بين أفراد الأمم الراقية من حيث القوة العاقلة وضعيف جداً من حيث الخلق — في أن الوراثة تميل دائماً بالأفراد الراقية الى المشال الوسط في الأمة — في المشاهدات التشرحية التي تؤيد تدرج الفروق النفسية بين الأمم وبين الأفراد وبين الأنواع (الذكر والانثى)

لا تمتاز الأم الراقية عن الأم الدنيا بالصفات النفسية والجسمانية وحدها بل تمتاز عنها ايضاً باختلاف العناصر التي تدخل في تكوين كل أمة . فمستوى العقل يكاد يكون واحداً عند جميع أفراد الأمم الدنيا ذكوراً واناثاً وتشابههم في ذلك يعطى مجموعهم مساحة المساواة التامة التي يحلم بها الاشتراكيون في هذا الزمان . وأما عند الأمم الراقية فالقاعدة هي اختلاف

الأفراد وكذا النوع اختلافاً كبيراً

ومن أجل ذلك لا يصح قياس الفروق بين الأمم
بطبقاتها الوسطى بل بالعليا ان وجدت . اذ الفرق ضعيف
بين الطبقات الوسطى في أمم الصين والهند وأوروبا من
حيث العقل وهو جسيم بين طبقاتها العليا

وكما تقدمت الحضارة اتسعت دائرة الفروق بين الأمم
وبين أفراد كل أمة وعلى الأخص أفراد الأمم الراقية . فثمرة
المدنية والحضارة هي على الضد من آمالنا تزيد الفروق بين
الناس من حيث العقل ولا تميل بهم الى المساواة أبداً
ومن أخص آثار المدنية إيجاد فرق بين بعض الأمم
وبعضها وبين طبقات كل أمة راقية لما تضطرّ اليه كل واحدة
من الأعمال العقلية كلما ارتقت حضارتها والمشاهد أن تلك
الأعمال في ازدياد مستمر

أنظر الى تطوّر الصناعة تراه يقضى على الطبقات النازلة
في الأمم المتحضرة بالبقاء على عمل محدود جداً ليس فيه ما
يزيد من قوتهم العاقلة بل هو يؤدي الى اضعافها . ولقد كان
العامل منذ مائة عام أستاذاً ماهراً يقدر على صنع آلات الساعة

بأكملها مثلاً فأصبح اليوم آلة تحرك غيرها . ثم هو لا يعمل
الآن في قطعة واحدة فتفنى حياته في خرق الخروق بعينها أو
جلاء القطعة بذاتها أو إدارة الآلة الواحدة . وينتج من ذلك
سرعة انطفاء القوة العاقلة فيه . وأما صاحب المصنع أو المهندس
الذي يستصنع ذلك العامل فإن أحوال المسابقة والاكتشافات
تدفعه إلى تحصيل المعلومات الكثيرة وتولد فيه من المهمة
الذاتية وتتمى عنده من قوة الاستنباط أكثر مما كان يحتاجه
منذ قرن من الزمان . ولما كان عقله يعمل على الدوام فإنه
يزداد على الدوام طبقاً لناموس وظائف الأعضاء

أشار (توكفيل) إلى تدرج الفروق الذي نبهت فيه
بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء
مبلغها في الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس في تطبيق
قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وخذ عقله وزادت
تابعيته لغيره فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل
يوم بين العامل ورئيسه »

تشبه الأمة الراقية في هذا العصر من حيث العقل هرمياً
له درج . المجموع النازلة كتلتها العظمى والطبقات السامية

المدارك قسمه الأعلى^(١) وفي الذروة ترى النبغاء من العلماء
وأصحاب الاكتشافات وأساتذة الفنون والكتاب وهؤلاء
طائفة صغيرة جداً بالنظر لمجموع الأمة ولكنهم هم الذين
يقاس بهم مستوى البلاد العقلي في سلم المدنية . فما أصدق
قول (سان سيمون) « اذا أضاعت فرنسا الخمسين الأول
من علمائها ومثل ذلك من أهل فنها وصناعاتها وزراعتها قطعت
رأس الأمة وأصبحت جسماً بلا روح ولكنها اذا فقدت جميع
موظفيها الرسميين فان تلك الحادثة تحزن الفرنسيين لطيب
نفوسهم ولكنه لا ينجم في البلد لذلك من الضرر الا اليسير »
كلما ارتقت الحضارة زادت سرعة اتساع الفروق بين
طبقات الأمة وربما بلغت تلك السرعة نسبة المتوالية الهندسية
المعروفة في علم الحساب . ولولا أن الوراثة تحول دون تعاضلها

(١) قلت السامية المدارك ولم أضف المتعلمة لأن من الخطأ الذي جرت
عليه الأمم اللاتينية خاصة الاعتقاد بوجود نسبة بين العلم والذكاء اذ يكفي في
التعلم أن يكون المتعلم على جانب من القوة الحافظة ولكنه لا يستلزم شيئاً من
صفات القوة العاقلة أو القوة التصورية أو الهمة الذاتية أو قوة الاستنباط . وم
يلتقى الانسان بمن جمع اليه من الشهادات شيئاً كثيراً وهو ذو عقل صغير وم يلتقى
بغير متعلم يتوقد ذكاء وعليه فدرج هر منا العليا تتألف من عناصر جميع الطبقات ففي
جميع الحرف أفراد امتازوا بسمو المدارك ولكن الظاهر بحكم الوراثة أن عدد
أولئك المتفوقين يكثر في الطبقات الراقية وان ذلك هو علة استعلاء الطبقات المذكورة

لوصل الفرق مع الزمن بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا
الى مثل ما هو عليه بين الأبيض والأسود بل بين هذا
وبين القرد

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة تعترض اتساع الهوة
بين الفريقين بمقدار ما تؤدي اليه النظرية وحدها . أولها أن
التميز لا يحصل في غير القوة العقلية إلا قليلاً فلا يتناول الخلق
أو هو لا يتناوله إلا بضعف شديد . وقد علمنا أن الشأن
الأول في حياة الأمة للخلق لا للعقل . ثانيها أن الجموع سائرة
في هذا العصر الى القوة بما تنظم من شؤون نفسها والجموع
تبغض المتفوقين على اختلاف أنواعهم بغضاً لا ينكره أحد .
ومن المحتمل أنها اذا كمل نظامها تهدم كل قوة عقلية تعترضها
كما أسقطت طائفة الاشراف منذ مائة عام . ومتى عمت
سيادة الاشتراكية في أوروبا فلا أمل لها بالبقاء بعض الزمن
إلا اذا أتت على كل من خصه الله بموهبة تميزه أقل تمييز عن
أدنى درجة من درجات الأواسط

هذان السببان عارضان لأنهما متولدان عن الحضارة
والحضارة متغيرة بطبيعتها . وهناك سبب أهم منهما يحول

بين خيار النبغاء وبين سرعة افتراقهم عن بقية طبقات أمتهم
من الجهة العقلية . وأهميته آتية من كونه طبيعياً غير قابل
للتغير . وهو ناموس الوراثة القوي فانه يقضى بزوال من تتسع
الهوة بينه وبين أواسط أمته أو بارجاعه الى ذلك الوسط .
اذ المشاهدات القديمة التي دونها جميع العلماء المشتغلين بالوراثة
تدل على أن نسل العائلات رفيعة المدارك ينتهي في الغالب
بالفساد ثم بالزوال التام عاجلاً أو آجلاً . والعاجلة أرجح

وعليه يظهر أن سمو الإدراك في الرجل مقرون بفساد
النسل . ولولا أن ذروة الهرم التي أشرنا إليها من قبل تتغذى
على الدوام من العناصر التي دونها لا تقرضت عن آخرها .
ولو جمع النبغاء من كل طبقة وأسكنوا ناحية على حدة فتناسلوا
لتولد منهم أمة مصابة بالفساد ولا تلبث أن تزول . وما أشبه
كبراء المتفوقين في سمو المدارك بالنباتات ذات الضخامة
الفاحشة التي ينمى البستاني بحيلة الصناعة اذا تركت وشأنها
ماتت أو رجعت الى حدها الوسط الذي هو العنصر الأقوى
لأنه جماع ما ورث عن الاجداد

والتأمل في أحوال الأمم يرى أن أفراد كل واحدة

منها وان افترقوا كثيراً من جهة العقل يكادون لا يفترقون
من جهة الخلق الذي هو الصخرة الثابتة رغم تقلب الأزمان
كما بيناه . لذلك ينبغي عند البحث في أحوال أمة أن ينظر
إليها من جهتين . فهي لا قيمة لها من الجهة العقلية الا بالنبغاء
وهم قليلو العدد واليهم يرجع رقي علومها وآدابها وفنونها . فقيمة
الأمة تقاس بطبقاتها الوسطى دون غيرها لأن قوة الأمة
تابعة لمستوى هذا الوسط . فيجوز أن تستغنى الأمم عن
النبغاء في العقل ولكنها لا حياة لها الا بالخلق . وسنبرهن
على ذلك قريباً

ينتج مما تقدم أن الفروق من جهة العقل في نمو مستمر
وأما الخلق فانه يدور دائماً حول المثال الوسط . وهو الذي
يرتقى رويداً رويداً وفيه يشترك السواد الأعظم من أهل كل
أمة . ويرى هذا الأس المتين ولا سيما عند الأمم الراقية
مكسواً بطبقة لطيفة من المدارك السامية . وتلك الكسوة
هي التي لها المقام الاول في تقدم الحضارة وارتقاء المدنية
ولكنها لا أهمية لها من حيث التأثير في أصل الجنس .
وكأنى بها كسوة من اللباس فما أشبه الاثنين في البلاء والتجدد .

فطبقة النبغاء على الدوام في تحلل وعلى الدوام في تجدد . والذي يبلها ويجدها هي الطبقة الوسطى التي لا تتغير الا قليلاً جداً لأن أقل تحول فيها يقتضى تجدد الوراثة قروناً طويلة ولقد وصلنا منذ بضع سنين من طريق البحث التشريحي الى اثبات هذه الفروق التي ندلل عليها الآن من طريق البحث النفسى . ولما كان البحثان قد أديا الى نتيجة واحدة فسأورد للقارىء بعض نتائج البحث الأول وهي مؤيدة بما أجريته من قياس عدة آلاف من الجماجم القديمة والحديثة لأفراد من أمم مختلفة . واليك أهمها نقلاً عن كتابنا (أبحاث تشريحية ورياضية في اختلاف حجم المخ ونسبة ما بين ذلك وبين درجة العقل) المطبوع سنة ١٨٧٩ وهي رسالة قرظها المجمع العلمى وجمعية (الأنتروپولوجى) :

« توجد نسبة كبيرة بين حجم الجمجمة وعقل صاحبها »
« كما ثبت ذلك من المشاهدات المتكررة وان اختلفت »
« النسبة المذكورة في بعض الأفراد . ويتبين للباحث أن »
« الفارق بين الأمم الدنيا والأمم الراقية ليس هو زيادة »
« حجم جماجم أفراد الأولى اذ هذا الفرق يسير بل هو »

« وجود أنماخ نامية نمواً كبيراً في أفراد الأولى وعدم هذا »
« النوع في أفراد الأمم الدنيا . وحينئذٍ فالتمييز بين الأمم »
« يكون بأحاديها لا بجموعها . إذ الفرق الوسط في حجم »
« الجمجمة ليس كبيراً بين أفراد أمة وبين أفراد أخرى »
« ما عدا الأمم الدنيا »

« وإذا قابلنا بين جماجم الأجناس البشرية في الحاضر »
« والماضي وجدنا أن الأمة التي تكثر الفروق بين جماجم »
« أفرادها من جهة الحجم هي الأرقى في حضارتها . وأنه كلما »
« تقدمت الحضارة ازدادت فروق الجماجم . وينتج من ذلك »
« أن الحضارة لا تسير بالناس إلى المساواة العقلية بل إلى »
« التفاوت بينهم في ذلك كثيراً . ولا توجد المساواة التشريحية »
« والتركيبية إلا بين أفراد الأمم المنحطة . فالفرق يسير »
« جداً بين قوم من الهمج كلهم يعمل عمل أخيه . والفرق »
« عظيم جداً بين الزارع التي تنحصر بضاعته من اللغة في »
« ثلثمائة كلمة وبين العالم الذي يعرف من ذلك مائة ألف »
« وما يقابلها من المعاني »

« وينبغي أن نشير هنا إلى أن الفرق الذي تحدثه »

« المدنية بين الأفراد مشاهد أيضاً بين الجنسيتين . فالرجل »
« والمرأة متساويان على التقريب من جهة العقل عند الأمم »
« المنحطة وفي الطبقات النازلة من الأمم الراقية . ويظهر »
« ذلك الفرق وينمو كلما ارتقت الأمة في المدنية »

« ومن المشاهد أيضاً وجود فرق بين حجم جمجمة »
« الرجل وجمجمة المرأة تزداد سرعة نموه بتقدم المدنية . »
« وذلك ثابت حتى من مقارنة جماجم من اتفقا في العمر »
« والقامة والوزن كما جربناه نحن . وهذه الفروق ضعيفة »
« جداً في الأمم المنحطة وكبيرة جداً في الأمم الراقية . »
« وفلما يزيد حجم جماجم النساء في الأمم الراقية عن حجم »
« جماجم نساء الأمم المنحطة . فيينا نشاهد أن متوسط حجم »
« جماجم الباريزيين في الصف الأول من النمو نرى متوسط »
« حجم جماجم الباريزيات مساوياً لأقل حجم وقع تحت »
« المشاهدة فهو يقرب من حجم جماجم الصينيات ولا »
« يزيد الا سيراً عن حجم جماجم نساء (كاليدونيا الجديدة) »

لفصل الخامس

تكوين الأمم التاريخية

كيف تكونت الأمم التاريخية — الأحوال التي تساعد على امتزاج شعوب مختلفة وتكوين أمة واحدة — تأثير عدد أفراد كل فريق من الفرق المجتمعة واختلاف أخلاقهم وبنيتهم وهكذا — نتيجة التوالد — علة انحطاط درجة المولدين — عدم ثبات الاخلاق النفسية المتحصلة من التوالد — كيف تثبت تلك الاخلاق — أزمنة التاريخ الحرجة — التوالد عامل قوى في تكوين الامم الجديدة وهو أيضاً عامل قوى في تحليل المدنية — أهمية نظام الطوائف — تأثير البيئات — في أنها لا تؤثر الا في الأمم الجديدة التي لا تزال في دور التكوين بعد ان يكون التوالد فكك عرى اخلاقها الموروثة — في أنه لا تأثير لها في الأمم القديمة — أمثلة شتى — في أن معظم الأمم التاريخية بأوروبا لا يزال في دور التكون — نتائج ذلك السياسية والاجتماعية — السبب في قرب انقضاء زمن تكون الأمم التاريخية

قدمنا أنه لم يبقَ بين الأمم المتحضرة شعوب حقيقية بالمعنى العلمى . وأن الموجود الآن هو أمم تاريخية تكونت اتفاقاً بتأثير الفتوحات والهجرة والسياسة وهكذا . فهي حينئذ مركبة من أشخاص مختلفى الجنس أصلاً .

والآن نبحث في كيفية امتزاج الشعوب المختلفة وصيرورتها
أمة تاريخية ذات أخلاق نفسية واحدة

ونلاحظ أولاً أن بعض العناصر التي تجتمع اتفاقاً ببعضها
لا تبرز دائماً. فالشعوب الألمانية والهنكارية والسلافية وغيرها
من التي تعيش تحت الدولة النمساوية ممتازة عن بعضها امتيازاً
تاماً ولم تظهر فيها حتى الساعة ميلاً إلى الامتزاج . وكذا
الارلندي الخاضع لحكم انكلتره لا يزال حافظاً لكيانه .
وأما الأمم المنحطة جداً كأصحاب الجلود الحمر (پوروچ)
و (الأستراليين) و (التسمانيين) وغيرهم ففضلاً عن كونهم
يتمزجون بالأمم الراقية فانهم يفنون فيها اذ دلت التجربة على
أن كل أمة منحطة تزول باختلاطها مع أمة راقية لا محالة
ولامتزاج الشعوب ببعضها بعض وصيرورتها أمة جديدة
متحدة اتحاداً تاماً ثلاثة شروط

الشرط الأول هو أن لا تكون الشعوب المتوالدة مختلفة
العدد كثيراً . والثاني أن لا يكون الفرق في أخلاقها كبيراً .
والثالث أن تعيش زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل بيئية واحدة
والشرط الأول أهم الثلاثة . فاذا نزع عدد قليل من

البيض وأقام بين الزنوج فنى فيهم ولم يترك من دمه أثراً فى
نسله . وهكذا فنى الفاتحون الذين أقاموا فى أمم كثيرة العدد .
وقد ترك اللاتينيون فى بلاد (الغلوا) والعرب فى مصر

حضارتهم وفنونهم ولغتهم ولكنهم لم يتركوا دمهم
وللسبب الثانى أيضاً أهمية كبيرة . نعم يجوز أن يكون
الفرق بين الشعبين المجتمعين كبيراً ومع ذلك يمتزج أحدهما
بالآخر كالأبيض والأسود . غير أنه لا يتكوّن من المولدين
الآمة منحلة انحطاطاً كبيراً بحيث لا تكون قادرة بحال
على أن تخلق لنفسها حضارة أو تدوم على حضارة . ذلك لأن
اختلاف المتوالدين يحلّل خلق الفريقين ويفسكك آدابهم فإذا
ورث المولدون من البيض والزنوج مدينة راقية أضاعوها
سريعاً كما وقع لأهل (سان دومينج) وأما بين الأمم الراقية
فالتوالد عامل قوى من عوامل الارتقاء متى تقاربت بعضها
من بعض فى الجنس كالانكليز والألمان بأمرىكا أما اذا كان
الفرق كبيراً فالتوالد يورث فساد النسل لا محالة

لذلك نرى جميع الأمم التى يكثّر بين أهلها عدد المولدين
من النوعين الأبيض والأسود محكوماً عليها باستقرار الفوضى

أَلْهَمَّ إِلَّا إِذَا تَوَلَّتْ حَكْمَهَا يَدٌ مِنْ حَدِيدٍ . ذَلِكَ هُوَ مَصِيرُ
الْبِرَازِيلِ مِنْ دُونِ شَكِّ فُلَيْسَ فِيهَا مِنَ الْبَيْضِ إِلَّا الثَّلَثُ . وَقَدْ
أَصَابَ (اِغَاسِيْز) الشَّهِيْرُ بِقَوْلِهِ « مِنْ زَارِ الْبِرَازِيلَ لَا يَسْمَعُهُ
انْكَارُ التَّدْهَوْرِ النَّاجِمِ عَنِ التَّوَالِدِ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا . فَهُوَ
يَمْحُو فُضَائِلَ الْبَيْضِ وَفُضَائِلَ السُّودِ وَفُضَائِلَ الْهِنُودِ عَلَى السَّوَاءِ
وَيُخَلِّفُ نَسْلًا ضَعِيفًا جَسَمًا وَعَقْلًا بَلْ لَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُونَ
أَنْ يَصِفُوهُ »

تَوَالِدُ الْأُمَمِ يَغْيِرُ مَزَاجَهَا الْجَسْمِيَّ وَمَزَاجَهَا الْعَقْلِيَّ مَعًا .
وَهُوَ الْوَسِيلَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمْكِنُ مَعَهَا تَغْيِيرُ مَا هِيَةِ الْخَلْقِ
الْأَصْلِيِّ فِي الْأُمَّةِ لِأَنَّهُ لَا يَفْلُ الْوَرَاثَةُ إِلَّا الْوَرَاثَةُ فَإِذَا طَالَ
الْأَمَدُ عَلَى التَّوَالِدِ تَوَلَّدَ مِنْ فِعْلِهِ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ ذَاتُ صِفَاتٍ
جَسَمَانِيَّةٍ وَنَفْسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ

وَتَكُونُ الْأَخْلَاقُ الْمَتَوَلَّدَةُ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ مُتَقَلِّبَةً ضَعِيفَةً
فِي مَبْدَأِهَا وَلَا تَثْبِتُ إِلَّا بِتَقَادُمِ فِعْلِ الْوَرَاثَةِ فِيهَا . فَأُولَئِكَ أَثَرُ
لِتَوَالِدِ أُمَّتَيْنِ هُوَ ابْدَاءُ رُوحِ كُلِّ مِنْهُمَا أَعْنَى مَجْمُوعِ الْمَشَاعِرِ
وَالْأَفْكَارِ الْعَامَةِ الَّتِي هِيَ سِرُّ قُوَّةِ الشُّعُوبِ وَبَدْوْنِهَا لَا تَوْجَدُ
أُمَّةٌ وَلَا وَطَنٌ . وَهَذَا الدَّورُ هُوَ أَشَقُّ الْأَدْوَارِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ

لأنه دور نشوء وتأسيس وقد اجتازته الأمم جمعاء فلا تكاد
توجد أمة أوربية غير قائمة على أطلال أمة أخرى وهو مملوء
بالانقسامات الداخلية والتقلبات المختلفة ولا ينقضى حتى
تستقر الأخلاق النفسية الجديدة

ومما تقدم يتبين أن التوالد عامل أصلي في تكوين الأمم
الجديدة ومؤثر قوى في تحليل الأمم القديمة . لذلك أصابت
الأمم التي بلغت درجة عالية من الحضارة في ابتعادها عن
الاختلاط بالأجانب . ولولا التمسك بحبال العصبية لما أمكن
للآريين على قلة عددهم لما أغاروا على الهند منذ ثلاثة آلاف
عام أن يستبقوا شعبهم ولا تبتلعهم تلك الأمم السوداء التي
كانت تحيط بهم من كل جانب في بطونها ولما قامت
للحضارة قائمة في شبه جزيرة الهند العظمى وتوالدوا بينهم
وبين الهنود . ولو أن الإنكليز تساهلوا في العصر الحاضر
لفرت دولة الهند الضخمة من أيديهم منذ زمن بعيد .
والحاصل أنه يجوز أن تفقد الأمة شيئاً كثيراً من مشخصاتها
وأن تنتابها محن كبرى ثم تسترد قوتها وتنهض ثانياً ولكنها
لا تقوم من رقبتها إذا أضاعت روحها

ومتى مالت الحضارة الى الذبول وأصبحت فريسة المغيرين عليها من طريق الهدو والسلم أو من طريق العنف والقوة في الأمة أخذ أثر التوالد يظهر وجعلت أخلاقها تتحلل وتتركب فتهدم الحضارة أولاً لتهدم روح الأمة ويخلو السبيل لقيام حضارة جديدة بعد تحلل الأخلاق النفسية القديمة وقيام أخلاق جديدة على أطلالها

واذا دخلت الأمة الجديدة في دور التكوين بعد اجتيازها الأدوار المتقدم ذكرها ظهر أثر السبب الثالث الذي جاء ذكره في أول هذا الفصل . أعني أثر البيئات ضعيف جداً في الأمم القديمة وقوى جداً في الأمم الجديدة . وعلة ذلك أنه متى خلى الطريق من الأخلاق النفسية القديمة بتأثير التوالد أصبح من السهل على البيئة أن تؤثر تأثيراً محسوساً في تلك الأرض الخالية وبمرور العصور عليها تتولد أخلاق جديدة ثم تثبت نهائياً . واذ ذاك يقال ان أمة جديدة قد تكونت وهكذا تكونت أمتنا (فرنسا)

وعليه فتأثير البيئة يكون كبيراً أو صغيراً بحسب الأحوال سواء في ذلك البيئة المكانية والأدبية . وهذا هو سبب

اختلاف آراء الباحثين فيه اختلافًا كلياً وقد قلنا أنه عظيم في
الأمة التي في دور التكوين أما في الأمة العريقة في القدم
بتكرار الوراثة فيكاد يكون معدوماً

أما دليلنا على ضعف أثر البيئة الأدبية فهو عدم تأثير
حضارتنا الغربية في الأمم الشرقية وإن طال زمن الاختلاط
بيننا وبينهم كما هو مشاهد في الصينيين المتوطنين بالولايات
المتحدة . وأما دليلنا على ضعف تأثير البيئة المكانية فهو صعوبة
استيطان البلد الأجنبي . إذ من المشاهد أنه إذا نقل جنس
من الأجناس إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً من مسقطه إلى
بلد مختلفة عن بلده فني ولم يتحول . وبرهانه أن عشرة أمم قد
افتتحت مصر وكانت مصر مقبرة الجميع . وما استطاع فاتح
أن يستقر فيها . جاءها اليونان والرومان ثم الفرس والعرب
ثم الترك وغير هؤلاء وهؤلاء ولم يترك فيها واحد منهم أثراً
من دمه . إنما النموذج الذي يشاهد فيها هو ذلك الفلاح ذو
السحنة الصادقة في الدلالة على أنه سلالة أولئك الذين رقمهم
مهرة الصناع المصريين على قبور الفراعنة وفي جدران قصورهم
منذ سبعة آلاف من السنين

لا يزال معظم الأمم التاريخية بأروبا في دور التكوين
فينبغي للباحثين أن يقفوا على هذه الحقيقة ليفقهوا تاريخ
هذه الأمم . وليس في الغرب الآن أمة تم تكوينها وثبتت
صفاتها الا الأمة الانكليزية حيث لم يبق من أثر للبروتوني
ولا للسكسوني ولا للنورمندی بل عفت آثار الكل وأخلوا
المكان لعنصر جديد متسق الأجزاء متناسب الصفات . أما
في فرنسا فلا يزال الفرق موجوداً بين (البروقنسى) وبين
(الأوقرنى) و (النورمندی) . على أنه اذا لم يتم تكوين
المثال الفرنسوى الوسط الى الآن فان المثال الوسط لبعض
الأقاليم قد وجد . لكن من الأسف أن هذه الأمثلة الوسطى
لا تزال متفاوتة بعضها عن بعض في الأفكار والأخلاق
ولهذا كان من الصعب الاهتداء الى نظمات تلائم أحوالهم
جميعاً . ولولا حصر السلطة حصراً قوياً لما اتحدوا في بعض
أحوالهم العقلية . والفوارق في المزاج العقلى بين الفرنسيين
بعضهم وبعض هي علة انقسامهم على كثير من المسائل المتعلقة
بالمشاعر والمعتقدات كما أنها علة الانقلابات السياسية التى هي
أثر من آثار ذلك الانقسام ولن يزول هذا وذاك الا بفعل الزمان

ولقد كان هذا أيضاً حال الأمم الأخرى التي جرتها
الحوادث الى الاحتكاك بعضها ببعض فكانت الانشقاقات
والاضطرابات فيها على قدر اقتراقها في المزاج العقلي . فاذا كان
الخلف واسعاً استحال بقاء المختلفين تحت لواء واحد وعز
اخضاعهم جميعاً الى قانون بذاته . وتاريخ جميع الممالك العظيمة
في جميع الأزمان شاهد على ذلك . فانها دالت في الغالب بزوال
من شيدوها . وليس بين الأمم الحاضرة أمة تمكنت من
اخضاع أمم مختلفة عنها كل الاختلاف الا الانكليز والهولنديون
في القارة الآسيوية . وهم انما نجحوا في ذلك بعدم تعرضهم
لعادات تلك الأمم وأخلاقها وشرائعها وبتركهم اياهم في الواقع
يحكمون أنفسهم بأنفسهم مكتفين من السيادة بسهم من
الضرائب والعمل في التجارة والقيام على تأييد السكينة
وحفظ النظام

وما عدا هذه الاستثناءات النادرة يتعذر قيام الدول
الضخمة التي تضم اليها أمماً مختلفة الا بالقوة . على أنها تكون
أيضاً عرضة للزوال بوسائل القوة ولا يمكن أن تنشأ أمة
ويثبت قدمها الا اذا تكونت على مهل بامتزاج العناصر التي

قلّت الفروق بينها وباستمرار توالدها ودوام حياتها تحت سماء
واحدة وخضوعها لتأثير بيئة واحدة وانقيادها لمعتقدات
واحدة ونظومات واحدة . اذا اجتمع ذلك لعناصر مختلفة
أمكنها بعد مرور عدة قرون أن تصير أمة واحدة
وكما تقدمت الدنيا في الوجود زادت الأمم ثباتاً
ورسوخاً وقلّ تحوّلها بتأثير الامتزاج شيئاً فشيئاً وكما بلغت
الانسانية عقداً من العمر أثقلت كاهلها عوامل الوراثة وتعذر
عليها التحوّل عن حالتها وعلى ذلك يمكن أن يقال ان دور
تكوين الأمم التاريخية في أوروبا أوشك أن ينقضى

الباب الثاني

ظهور أخلاق الأمم في عناصر مدنيّتها

الفصل الأوّل

في أن عناصر المدنيّة في كل أمة هي مظاهر
روح الأمة في الخارج

عناصر كل مدنيّة هي المظاهر الخارجيّة لروح أمّتها — اختلاف أهميّة هذه
العناصر باختلاف الأمم — قد يكون الشأن الأوّل للفنون أو الآداب أو
النظامات أو غيرها من العناصر بحسب الأمم — التمثيل لذلك في الزمن القديم
بالمصريين والاعريق والرومانيين — التمثيل بالفنون — مدلول الفنون —
استحالة دلالة أحد عناصر المدنيّة وحده على درجة رقيّها — العناصر التي توفّر
على الأمة أسباب تفوقها — قد تكون العناصر منحنطة فلسفيّاً ولكنها ذات
قيمة كبيرة من الوجهة الاجتماعيّة

عناصر كل مدنية من لغة ونظامات وأفكار ومعتقدات
وفنون وآداب هي التي يجب اعتبارها مظاهر خارجية لروح
من أوجدوها. إلا أن أهمية هذه العناصر في الدلالة على ذلك
مختلفة باختلاف الشعوب والأزمان

وقلما يخلو كتاب من الكتب المؤلفة في مبتكرات
الفنون من تقرير أن هذه المبتكرات هي ترجمان فكر أمتها
الأمين وأنها الدليل الصادق على مدنيته

ولا شبهة في أن الأمر كذلك في الغالب إلا أنها قاعدة
ليست عامة بحال. وليس رقي الفنون في الأمة مقترناً على الدوام
برقي الأمة العقلية. فمن الأمم من تكون فنونها عنوان رقيها ومنها
من تكون بالغة درجة رفيعة في المدنية وليس للفنون عندها
إلا شأن صغير

ولو أننا اضطررنا إلى وضع تاريخ لمدينة كل أمة باعتبار أحد
تلك العناصر دون البقية لوجب أن نسند كل تاريخ إلى عنصر
خاص فتكون الفنون في هذه والنظامات في تلك والجنسية
في الأخرى والتجارة عند الرابعة وهكذا. وذلك مبحث
يجب أن نبدأ بتقريره لأنه يفيدنا في بيان سبب تحول عناصر

المدنية تحولاً متفاوتاً بانتقالها من أمة الى أخرى
يشاهد الفرق في نمو عناصر المدنية على الأخص عند
المصريين والرومانيين في الزمن القديم بل يشاهد عندها أيضاً
اختلاف الرقي في فروع العنصر الواحد
فأما المصريون فقد كانت صناعة الأدب عندهم منحلة
وصناعة النقش ضعيفة وكان فن العمارة وصنع التماثيل من
أعظم المبتكرات . ولا يزال أهل هذا العصر معجبين بما شيد
المصريون من المباني . وقد تركوا لنا أيضاً من صناعة التماثيل
طرفاً (كشيخ البلد) و(الكاتب) و(راحتب) و(نقرتاري)
وكثير غيرها مما يصح أن يتخذ مثلاً ينسج على منواله . ولم
يصل الاغريق الى التفوق عليهم فيه الاّ ردحاً من الزمن قصيراً
ونذكر بجانب المصريين قوم روما الذين لعبوا دوراً مهماً
في التاريخ ولم يعوزهم المعلمون والأمثلة التي يحتذونها فقد كانوا
قريبى عهد بالمصريين والاغريق ومع ذلك لم يتوصلوا الى
ايجاد فنون خاصة بهم . وهم أقل الأمم التي عرفها التاريخ ظهوراً
في منتوجات الفنون اذ كانوا يعنون بها الا قليلاً ولا ينظرون
اليها الا من جهة ما فيها من الربح فيعتبرونها من السلع التي

تباع في الأسواق كالمعادن والعطريات والتوابل وغيرها مما يطلبونه لدى الأمم الأخرى . وقد بلغوا أوج سؤددهم وليس لهم فنون وطنية حتى أنهم بعد أن استقر ملكهم ووفرت أموالهم وارتقت ميولهم في الزخرف وتأثرت بذلك مشاعرهم الفنية بعض التأثير ما برحوا يلتمسون من الاغريق أمثلة يصنعون على منوالها وصناعاً ينفذون ما يطلبون

وإذا أردنا أن نسطر تاريخ فن العمارة أو الحفر عند الرومانيين وجدناه فصلاً من فصول تاريخ ذينك الفنين عند الاغريق

انحطت تلك الأمة الرومانية العظيمة في باب الفنون ولكنها رفعت الى السماء راية ثلاثة من عناصر المدنية الأخرى فأجادت نظام الجندية حتى استلمت به قياد العالم بأسره وأحكمت النظمات السياسية والقضائية التي لانزال نحتذيها حتى الآن وأحدثت فن أدب اتخذناه عنها قروناً طويلاً

بذلك نرى اختلاف نمو عناصر المدنية في أمتين لامشاحة في أنهما بلغتا من الرقي درجة عليا ويتبين لنا وجه الخطأ في الاقتصار لتقرير حقيقة الحضارة عند الأمم على عنصر واحد

من تلك العناصر كالفنون وحدها . لأننا رأينا عند المصريين
فنوناً وصلت حد الإعجاز إلا النقش وفن أدب في مستو
صغير جداً . ورأينا عند الرومانيين فنوناً ضئيلة لا شخصية
فيها ولكننا عرفنا لها أدباً رائعاً ونظاماً سياسياً وعسكرياً من
الطراز الأول

ولنا أن نذكر الاغريق وهم من الأمم التي تفوقت في
فروع شتى من عناصر المدنية . كان فن الأدب راقياً جداً في
زمن (هوميروس) بدليل أن أغانيه لا تزال معتبرة كالسلسبيل
الذي تشبعت به شبيبة الجامعات الأوروبية منذ قرون . وقد
دل التنقيب عن عمارات الأزمان الغابرة على أنها كانت تقرب
في زمن ظهور تلك الأغاني من عمارات المتوحشين وأنها عبارة
عن خليط مشوه منقول مما شاد المصريون والأشوريون
وأظهر ما يشاهد الفرق في نمو عناصر المدنية في الأمم
الهندية . فأما العمارات فقلما وجدت أمة فاقت الهند فيها وأما
الفلسفة فقد بلغ بعد نظرهم فيها شأواً لم يبلغه عقل الأوروبيين
الآن منذ عهد قريب جداً وأما صناعة الأدب فلم فيها مقاطيع
وملح تعجب الكتاب وإن لم يبلغوا في ذلك الفن مبلغ الاغريق

والرومان . وكانوا متأخرين في صناعة التماثيل عن الاغريق
بمراحل ثم هم مجردون من العلوم والمعلومات التاريخية ومملكة
التحقيق مفقودة منهم الى حد لا وجود له عند أمة أخرى .
فلم تكن علومهم الا تخيلات صيدانية . وما كتبهم في التاريخ
الا قصص سخيفة ليس فيها تاريخ حادثة واحدة وربما خات
من ذكر واقعة صحيحة . ولو اقتصر الباحث على النظر الى
الفنون وحدها لما كفى ذلك في بيان الدرجة التي كانت عليها
حضارة هذه الأمة

وهناك أمثلة كثيرة غير ما تقدم للدلالة على مبحثنا هذا .
فمن الأمم من لم تبلغ النهاية في سلم الرقي وكان لها في الفنون
طابع خاص لا نرى فيه نسبة ظاهرة بينه وبين فنون الأمم
التي تقدمته . ذلك شأن العرب في أقل من قرن بعد اغارتهم
على الأمم الاغريقية الرومانية القديمة قلبوا صورة العمارات
البيزنطية بعد أن جروا على مثالها حتى أصبح من المتعذر
معرفة المصدر الذي انتزعوا فنهجهم منه لولا وجود سلسلة العمارات
السابقة

ومن الأمم من ليس لها أدنى مقدرة فنية أو أدبية ولها

مع ذلك حضارة راقية كما وقع للفينيقيين الذين لم يعرف لهم
تفوق الا في التجارة . وهم الذين مدنوا الدنيا القديمة بما أوجدوا
من الصلات بين جميع أطرافها . أما هم فلم ينتجوا شيئاً جديداً
وينحصر تاريخهم في ذكر ما كانت عليه تجارتهم

وهناك أُمم انحطت لديها جميع عناصر المدنية الآل الفنون
كأمة (المغول) فان الآثار الضخمة التي أقاموها في الهند
يكاد لا يكون عليها شيء من المسحة الهندية . وقد بلغت من
الرواء حداً جعل المدققين في هذا الفن يرون بعضها أجمل ما
شادت يد الانسان . ومع ذلك لا يخطر على بال أحد أن يعد
(المغول) في مصاف الأُمم الراقية

على أنا نشاهد عند أرقى الأُمم حضارة أن الفنون لم
تبلغ النهاية في رقيها أيام زهو تلك الحضارة . فان أعظم مباني
المصريين والهنود هي أقدم ما بنوا . وقد تفتحت أحكام الفن
المعروف باسم (الغوطي) بأوروبا في القرون الوسطى حيث
كانت أُمم الغرب في حالة تقرب من الممجية . ولا تزال تلك
الآثار عديمة النظير الى يومنا هذا

لذلك يتعذر الحكم على درجة حضارة الأمة بدرجة رقي

فنونها دون غيرها لأنها كما سبق لى القول ليست إلا أحد عناصر المدنية . ولم يثبت أن هذا العنصر هو أرقى العناصر كما أن ذلك غير ثابت أيضاً لصناعة الأدب . بل المشاهد غالباً أن المصنوعات الفنية هي أضعف العناصر عند طلائع الأمم المتحضرة كالرومان فى العصور الخالية والأمريكان فى هذا الزمان . والمشاهد غالباً أيضاً كما قدمنا أن الأمم أنتجت أنفس فنونها وأشهى أدبها وعلى الأخص الأولى منها أيام كانت فى شبه البربرية . بل يخيل لنا أن دور ازدهار الفنون والأدب فى أمة هو دور انبثاق طفوليتها أو شببيتها لا دور تمام نموها . وإذا التفتنا الى الدنيا الجديدة التى يلوح لنا فخرها وقد استهوتها المصالح المادية ورأينا شأن الفنون عندها يكاد يكون غير محسوس أمكننا أن نخبر عن اليوم الذى تنزل فيه الفنون الى درجة المظاهر الثانوية الدالة على المدنية ان لم تنزل الى الدرجة السفلى

وهناك أسباب كثيرة تمنع من أن يكون رقى الفنون ملازماً على الدوام لرقى غيره من عناصر المدنية فتكون برهاناً على الحالة التى وصلت اليها المدنية المذكورة . اذ المشاهد أنه

بمجرد وصول الفنون الى درجة معينة من الارتقاء أعنى متى ظهرت الطرف تأخذ الفنون فى الانحطاط غير تابعة فى ذلك حركة بقية العناصر الأخرى . ذلك ناموس عام غير خاص بأمة دون أخرى . أثره ظاهر فى مصر واليونان وفى أمم أوروبا على اختلافها . ويستمر هذا التطور نحو السقوط الى أن تحدث ثورة سياسية أو غارة أجنبية أو الى أن تعتنق الأمة ديناً جديداً وتعرض حادثة أخرى من الحوادث التى تتكيف الفنون بسببها . حصل ذلك فى القرون الوسطى فان الحروب الصليبية حببت الى أوروبا معارف وأفكاراً جديدة ظهر طابعها فى الفنون حيث انتقلت مستحدثاتها من الطراز الرومانى الى الطراز (الغوطى) . وبعد ذلك بيضع قرون تجددت نهضة علوم الأدب الاغريقية الرومانية وانتقلت الفنون من الطراز (الغوطى) الى طراز (النهضة الجديدة) . وقس على ذلك تغير طراز الفنون الهندية فى الهند بسبب دخول العرب فى تلك الأقطار

ومما تجب ملاحظته أن الفنون من حيث دلالتها على بعض حاجات المدنية وكونها نتيجة بعض المشاعر المخصوصة

تجدد وتتغير بحكم الضرورة . وقد تزول بالمرّة تبعاً لتغير تلك
الحاجات والمشاعر أو زوالها . ولا يترتب على ذلك أن تكون
الحضارة نفسها في ذبول . وهذا برهان جديد على فقدان
التوازن بين الفنون وبين غيرها من عناصر المدنية . ألا ترى أن
المدنية لم تبلغ من الرقي ما بلغته في هذا الزمان . وأن الفنون
ما كانت في زمن من الأزمان أكثر تبذلاً وشيوعاً وأبعد
مشخصاً لأهمها منها الآن . وسببه تغير المعتقدات الدينية
والحاجات والمشاعر التي كانت تجعل الفنون عنواناً على الحضارة
أيام كانت هذه منحصرة في داخل القصور والصوامع والبيع .
فصار الفن بذلك أمراً ثانوياً وبضاعة زخرف لم يعد من الجائز
أن يفنى فيها الوقت الكثير والمال الوفير . ولما لم يعد الفن من
الحاجيات أصبح حتماً صناعياً وتقليدياً على الغالب . فلا توجد
الآن أمة لها فنون مليّة خاصة بها وكل أمة تنقل طراز العمارات
والحفر نقلاً متقناً أو غير محكم عن الأمم التي تقدمتها
نعم لا ننكر أن تلك الصور المنقولة تدل على حاجات أو
ميول عند الناقل . ولكن من المحقق أنها لا تدل على ما نحن
عليه الآن من الأفكار والمشاعر . اني أنظر الى مصنوعات أهل

الفن عندنا في الأزمان الوسطى على سذاجتها فأجد أنهم كانوا
يرسمون القديسين أو المسيح أو الجنة أو النار مما كان له الشأن
الأول في ذاك الزمان واليه تنجبه أغراض الحياة . ثم أنظر الى
المصورين في هذه الأيام وهم ليسوا من أهل ذلك الاعتقاد
يكسون جدران المباني بصور قديمة وشارات ترجع الى زمن
طفولية البشر يحاولون بذلك التذكير بعصر مندثر فأشعر بأنهم
يحدثون صور صناعية أو صورية لا ترجع الى حقيقة ولا
فائدة منها لأهل هذا العصر ولا يعباؤها أهل العصور القادمة
انما الفن الحقيقي هو الذي يدل دلالة صحيحة على زمنه
الخاص حيث يصور الصانع ما يقع تحت حسه أو نظره لا أنه
يقصر عمله على تقليد صور تترجم عن أفكار ومعتقدات لم تعد
من أفكارنا ولا من معتقداتنا . ولا تعتبر الصور صحيحة في
وقتنا هذا الا اذا مثلت الأشياء التي تحيط بنا . وفن العمارة
الصحيح الآن هو الذي يمثل لنا الدور ذات الطبقات الخمس
وعيون الأنهار وقناطر المياه والسكك الحديدية هذا الفن
مبناه المنفعة وهو الذي ينطبق على أفكارنا وحضارتنا ويمثل
كل التمثيل عصرنا كما كانت الكنيسة التي من طراز (الغوط)

وقصر عهد الشرفاء يمثلان زمنًا مخصوصًا . وستستوى تلك
الدور الشبيهة بقصر التيه وتلك الكنيسة (الغوطية) في
نظر مهندسي العصر الآتي لأنهما لن تكونا عنده إلا صفحتين
من الكتب الحجرية التي يتركها كل زمان للذي بعده كما أنه
سيلقى في زوايا الأهمال ما يقلده صناع هذا الزمان
كل طراز يمثل خيال أهل زمانه . ولما كانت الأزمان
متغيرة وكذا الشعوب على الدوام فمن المسلم أن الخيال يتغير
بتغيرها . وتستوى الخيالات كلها في نظر الفلسفة لأنها
ليست إلا علامات وقتية

وعليه فالفنون مظهر من مظاهر الأمة التي أوجت بها
لا فرق بينها وبين غيرها من عناصر المدنية . ولكننا لا نرى
فيها الميزان العدل لأفكار جميع الأمم على السواء
كان هذا التقرير لازمًا في موضوعنا لأن أهمية أحد
عناصر الحضارة عند الأمة هي مقياس قدرة تلك الأمم على
تغيير ذلك العنصر إذا نقلته إليها من أمة أخرى . فإذا كانت
ذاباع طويل في الفنون كان لا بد لكل فن نقلته إليها من
الانطباع بطابعها الخاص . ولكنها لا تؤثر إلا يسيرًا في العناصر

التي لا تمثل ملكتها . فلما نقل الرومان طراز عمارات الاغريق
لم يحدثوا فيه تغييراً كبيراً لأن روح الأمة الرومانية ما كانت
لتظهر في الفنون بل كان اهتمامهم الأكبر بغيرها من
عناصر المدنية

ومع ذلك فانه بعد قرون قليلة يتأثر الفن بعامل البيئة
حتى يدل بالقهر عنه على روح الأمة ولو كانت كالأمة الرومانية
ليس لها فن خاص وكانت محتاجة فيه الى جلب نماذجها
وصناعاتها من أمة أخرى . كذلك نرى معابد روما القديمة وقصورها
وأقواس نصرها ونقوشها البارزة مصنوعة بيد الاغريق أو
تلامذة هؤلاء . ولكن مسحة هذه الآثار والأغراض التي
أقيمت من أجلها وزخرفها وحتى مساحاتها لا تذكر الناظر
اليها بخيال آئيننا اللطيف بل هي تمثل القوة والسيطرة والمنعة
الحربية التي كانت تقيم روما وتقعدها . ومن هنا يتبين أنه
مهما كانت المادة التي استعملتها الأمة خارجة في الأصل عن
شخصيتها لا بد من أن تترك فيها أثراً ذاتياً لها يرشدنا الى
شيء من مزاجها العقلي وفكرها النفساني
وعلة ذلك أن للصانع الحقيقي سواء كان معمارياً أو أديباً

أو شاعراً ملكة سحرية يمثل بها في أعماله روح زمانه وأمته .
فالصناع شديداً والانفعالات . مشاعرهم الهامية . يتعقلون
بالصور ولا يبحثون إلا قليلاً . فهم بذلك في بعض الأزمنة
مرآة الجمعيات التي يعيشون فيها . ومحدثاتهم أصدق شاهد
يمكن الاستشهاد به على مدنية أمتهن . والخطأ بعيد عليهم
لأنهم يحدثون عما شاهدوا كاللبغاء . وهم شديداً والتأثر بما يحيط
بهم من المحسوسات فلا يضلون في التعبير عن أفكار تلك
المدنية ومشاعرهما وحاجاتها واتجاهاتها . أما الحرية فلا يعرفونها
وهذا هو السر في قدرتهم . سجنوا عقيدتهم في دائرة ضيقة
من التقاليد والأفكار والمعتقدات التي تكون روح الأمة
ومشاعرهما الموروثة وكذا الأفكار والالهامات وكل ذلك شديد
التأثير فيهم لأنه هو الحاكم على منابع الأفعال اللاتنبيهية حيث
تختمر المحدثات التي يوجدونها . ولو أننا فقدنا هذه المصنوعات
ولم يكن لدينا ما نعرف به العصور الماضية إلا القصص
المستهجنة والتلفيقات المخترعة في الكتب التاريخية لأنهم
علينا ماضي الأمم كما غابت عنا حقيقة (اطلانطيد) التي غمرتها
الأمواج كما ورد خبرها عن أفلاطون

والخلاصة أن مزية الفن الصحيح هي التعبير الصحيح عن حاجات الزمن الذي ولد فيه وأفصح الألسن على اختلافها لسان محدثات الفنون وأخصها العمارات فهي أصدق أنباء من الكتب وأقل تصنعاً من الديانات واللغات لأنها بنت الحاجات والمشاعر معاً . والمعماري هو مشيد بيت الإنسان وبيت أربابه . وفي المعابد وفي قلب العائلات اختمرت الأسباب الأولى التي كونت تاريخ البشر

يستنتج من كل ما تقدم أن جميع عناصر الحضارة هي مظهر روح الأمة التي أحدثتها . وإن بعض هذه العناصر مما يتغير بتغير الأمم وفي الأمة الواحدة وعلى حسب الأزمان المختلفة أصدق في الدلالة على تلك الروح من البعض الآخر

ولما كانت هذه العناصر متغيرة بحسب الأمم والأزمان فمن الواضح أنه لا يمكن اتخاذ واحد منها كمقياس عام لحضارة الجميع كما أنه يستحيل أيضاً أن ترتب هذه العناصر بعضها فوق بعض لأن هذا الترتيب عرضة للتغيير قرناً بعد قرن تبعاً لتغير أهمية العناصر نفسها بحسب الأزمان كما تقدم وإذا حكمنا على عناصر المدنية من جهة الفائدة وحدها

قلنا ان أهمها هي التي تتمكن بها الأمة من استخدام من عداها
أعنى المنظمات العسكرية . وحينئذٍ يجب أن نضع الاغريق
أهل الفنون الفلسفة والأدب دون أخلاط الرومانيين .
وحكماء المصريين وعلماءهم دون الفرس القرييين من الوحشية .
والهنديين دون المغول الذين يشبهون الفرس

والتاريخ لا يشتغل بهذه التقاسيم الدقيقة وأعظم شيء
له المقام الأول عنده هو التفوق الحربى . ولكن قلما يكون
ذلك مقترناً بالتفوق في عناصر المدنية الأخرى وعلى كل حال
فان الأول لا يبقى على الثانى طويلاً لأن الأفضلية الحربية
لا تبدأ مع الأسف فى الانحطاط لدى أمة الا يكون محكوماً
على هذه الأمة بالسقوط . وما دالت الدول الراقية الا أيام
بلوغها ذروة المجد وأوج الحضارة فأخلت المكان الى البرابرة
الذين هم أدنى منها بمراحل من حيث العقل الا أنهم كانوا على
شيء من قوة الخلق والمناعة الحربية وهما صفتان تنعدمان دائماً
بكثرة الترفه فى الحضارة

وعليه لا بد لنا من التسليم والحزن فى قلوبنا بأن العناصر
المنحطة فى نظر الحكماء هي أهم العناصر من الجهة الاجتماعية .

واذا كانت نواميس العصر الآتي هي التي عرفناها عن العصر
الخالى قلنا ان أشد الأحوال خطراً على الأمة وصولها الى
أعلى درجات الرقي في العقل والتهذيب . فالأمم تموت متى
ضعفت صفات خلقها التي هي نسيج روحها . وضعف هذه
الصفات يكون على قدر حظ الأمة من الحضارة والذكاء

الفصل الثاني

كيف تتغير النظمات والديانات واللغات

ليس في استطاعة الأمم راقية ودنيا ان تغير جذأة عناصر مدنيها — معارضة ذلك بالأمم التي غيرت ديانتها ولغتها وفنونها — مثال اليابان — في ان هذا التغير صوري — التغير الكلي في البوذية ومذهب البراهمة والاسلام والنصرانية بحسب الشعوب التي دانت بها — التغير الذي يحدث في النظمات واللغات بحسب الأمم التي تدخل عليها — في أن الألفاظ المتقابلة في اللغات المختلفة تعبر عن معان ومشاعر متفاوتة — استحالة ترجمة بعض اللغات الى بعض من أجل ذلك — السبب في أن مدنية بعض الأمم تظهر في كتب التاريخ متأثرة بتغير كبير — حد تأثير الحضارات بعضها في بعض

بيننا في غير هذا المكان كيف ان الأمم الراقية لا تستطيع ان تخضع الأمم التي هي أدنى الى حضارتها . وأثبتنا أن اكبر العوامل التي تستخدمها أوروبا في ذلك الغرض من تربية ونظمات ومعتقدات غير كافية بالمرّة لاحداث هذا الانقلاب . وحاولنا ايضاح ان جميع عناصر المدنية صادرة عن مزاج عقلي خاص يتكون بالوراثة مدى الزمن الطويل . وأن من المستحيل

تغيرها إلا بتغير ذلك المزاج . وأن هذا من صنع العصور
لا من عمل الفاتحين . وانه لابد من قطع مراحل متتالية حتى
تنتقل الأمة من درجة الانحطاط الى درجات الرقي كما كان
ذلك حال الأمم المتبربرة التي حطمت الحضارة الاغريقية
الرومانية . ومن يحاول أن يتخطى بالأمة تلك المراحل من باب
التربية فانما يعمل على تخريب آدابها وتشويش قوتها العاقلة
والسقوط بها الى مستوٍ أخط من الذي كانت بلغته من ذاتها
قبل ذلك

والاستدلال الذي استعملناه في جانب الأمم المنحطة
يصدق أيضاً في جانب الأمم الراقية . فاذا صحت النظريات
التي شرحناها في هذا الكتاب صح أن الأمم الراقية لا تستطيع
أن تغير حضارتها دفعة واحدة . بل يلزمها أيضاً ان تنتقل في
ذلك مرحلة بعد أخرى وأن تقطع أدوار التحول دوراً دوراً .
وقد يظهر أن أمماً راقية تركت ديناً بدين وبدلت نظاماً بنظام
واختارت لغة دون لغة وفنوناً جديدة غير ما كان لأبائها من
ذلك . ولكنها في الواقع لم تصل الى هذا الانقلاب إلا بعد
أن تكون حوّرت ما اتخذته تحويراً كلياً على مهل وصقلته

حتى جعلته موافقاً لمزاجها العقلي
والظاهر أن التاريخ يناقض هذه النظرية في كل صفحة
من صفحاته . فكم نرى فيه أمماً غيرت عناصر مدينتها واتخذت
لها ديناً ونظامات ولغة غير التي كانت لها فمنها من تركت دين
آبائها الأولين واعتنقت المسيحية أو البوذية أو الاسلام ومنها
من حورت لغتها تحويراً كلياً ومنها من قلبت نظاماتها
وفنونها رأساً على عقب . ويلوح أنه يكفي قيام بطل من الفاتحين
أو المرسلين أو أن يأخذ الأمة شيئاً من الهوس ليحدث مثل
ما تقدم من الانقلاب

غير أن التاريخ بروايته هذه الانقلابات لم يخرج عن
القيام ببعض وظائفه أعني خلق الخطأ وتأيينه لكن اذا دققنا
النظر في هذه التغيرات المدعاة رأينا أن الذي تغير في الواقع
انما هي أسماء الأشياء أما المسميات المختبئة تحت الألفاظ فحية
ترزق وهي لا تتغير إلا ببطيء عظيم

وحتى نبين ذلك ونوضح أيضاً أن التغير يختمر رويداً
رويداً من وراء هذه التسميات ينبغي ان نستقرئ عناصر
كل حضارة بذاتها في أمم مختلفة . أعني اننا نجد وضع تاريخها .

وقد حاولت هذا العمل الشاق في أجزاء عدة فلا يسعني ان
أعود اليه هنا ولذلك أجتزئ عن جميع العناصر بواحد منها
وهو الفنون

سأفرد لبيان التغيرات التي تطرأ على الفنون فصلاً خاصاً
وأريد قبل ذلك أن آتي هنا على طرف من التغيرات التي
تلحق ببقية العناصر لأبين ان النظرية التي تصدق على أحدها
تصدق أيضاً على البقية . وأنه كما أن فنون كل أمة تناسب
مزاجها العقلي فالنسبة أيضاً موجودة بين ذلك المزاج وبين
اللغة والنظامات والمعتقدات وهكذا . وانه بناءً على ذلك يتعذر
تغيرها دفعة واحدة وانتقالها من أمة الى أخرى^(١)

ولقد يذهب الظن الى أن هذه النظرية مناقضة لما

(١) لن أذكر هنا مثال اليابان فقد كتبت عنه قبل الآن ولربما عدت اليه
في وقت آخر اذ يتعذر ان تضم بعض الصحائف مستفيض القول على مسألة طاش
حكم عظماء السياسيين فيها وتبعهم في خطأهم مع الأسف بعض قصار النظر من
الفلاسفة لأن نفوذ الانتصارات الحربية ولو على هيج متوحشين لا يزال عند
بعض الأفهام دليلاً على مقدار مدنية الغالب مع أنه من السهل تدريب جماعة من
الزنوج على النظام الحربي الأوروبي وتعليمهم كيف يستخدمون المدافع والمكاحل
ولكن ذلك لا يغير من انحطاطهم العقلي ولا ما يتبع ذلك من المستلزمات . وطلاء
المدنية الأوروبية الذي يغشى اليابان في هذا العصر لا منزع له من مزاجها العقلي
بحال ولكنه لباس حقير مستعار ستمزقه الثورات عما قريب

يشاهد في الديانات لكن الواقع أن تاريخ المعتقدات هو الذي نجد فيه الأمثلة القاطعة على صحة نظريتنا والحجة الدامغة على أنه يستحيل على الأمة أن تغير عناصر مدينتها جملة كما يستحيل كذلك على الانسان أن يبدل من قامته أو لونه

ليس من ينكر أن الديانات الكبرى كالبرهمية والبوذية والنصرانية والاسلام دخلت دفعة واحدة في شعوب بحملتها فبدلتها بدورها الأصلية حتى خيل أنها استبدلتها فجأة بما وجدت عليه آباءها وبالتأمل في ذلك يتبين أن الذي استبدلته الأمم على الأخص إنما هو اسم دينها القديم لا الدين نفسه والدين الجديد هو الذي تغير حتى يتفق مع المعتقد القديم فلم يكن الجديد في الحقيقة الا امتداد ذلك القديم

بل أن التغير الذي لحق بالأديان التي انتقلت من أمة الى أخرى وصل الى درجة لم يبق معها من الدين المعتقد حديثاً الا اسمه وصورته . وأوضح مثال نجد في البوذية فانها منذ انتقلت الى الصين ضاعت معالمها حتى ظنها العلماء في أول الأمر ديناً مستقلاً . ولبثوا زمناً طويلاً حتى اهتدوا الى أنها البوذية حورتها الأمة التي اعتنقتها . وليست البوذية

الصينية هي البوذية الهندية أبداً . وهذه تخالف كل المخالفة
بوذية (نيبال). وهذه أيضاً تبعد عن بوذية سيلان (سرنديب).
فهي في الهند مذهب من البرهمية التي سبقتها ولا تختلف
عنها في حقيقتها الا يسيراً . وهي في الصين أحد المذاهب
التي كانت سائدة في تلك البلاد وبين الاثنين رابطة قوية
وحال البرهمية حال البوذية سواء بسواء فأهل الهند
قبائل شتى وكان لا مندوحة من اختلاف شيعهم في المعتقدات
وان اتحد الدين عند الجميع . فجميع الذين يدينون بالبرهمية
يعتقدون أن أهم آلهتهم (فيشنو) و (سيفا) . وأن الكتاب
المقدس هو (فيدا) . غير أن هذين الالهين لم يتركا الا اسمها
كما أنه لم يبق من الكتاب المقدس الا رسمه . وقام بجانب
الكل مذاهب لا يحصى عددها . تشعبت فيها المعتقدات
تشعب القبائل والطوائف . فهناك مذاهب التوحيد . وتعدد
الآلهة . وعبادة الحيوان والجماد ومجموع الكائنات . وعبادة
الأجداد والشياطين . وهكذا . ولو رجعنا في معرفة الديانة
الهندية الى ما هو مسطور في (الفيدا) لما وقفنا على طرف
يسير جداً من الآلهة والمعتقدات السائدة في تلك الأقطار

المتنائية الأطراف . فاسم الكتاب المقدس محترم عند جميع
البراهمة . أما الدين الذي جاء به هذا الكتاب فلم يبق على
وجه العموم شيء منه

وما شذ الاسلام نفسه عن هذه القاعدة على بساطة
مذهب التوحيد الذي جاء به . فالفرق كبير بينه في الفرس
وبلاد العرب والهند ألا ترى ان تمكن عقيدة تعدد الآلهة
عند الهنود سهل عليهم من جعل أكبر الديانات تشدداً في
الوحدانية شاملة لآلهة كثيرة . هنالك خمسون مليوناً من الهنود
يرون أن محمداً والأولياء ليسوا إلا آلهة أضافوهم إلى ألف آله
مما كانوا يعبدون . حتى أن الاسلام لم يتمكن من إيجاد المساواة
بين جميع المسلمين في الهند . مع أن المساواة كانت سبباً قوياً
في انتشاره . فلا تزال الطوائف موجودة عندهم كما هي عند
أخوانهم غير المسلمين . وفي بلاد الدكن وعند قبائل (دراقان)
تغير الدين حتى أصبح لا يعرف أنه الاسلام ولا يكاد يفرق
بينه وبين البرهمية بل أنه لا يفترق عنها إلا باسم محمد وبالجامع
ولكنهم ألهوا الرسول وعبدوه

على أنه لا داعي للرحيل إلى الهند لئري ما دخل على

الاسلام من التحوير الكلى بانتقاله من أمة الى أخرى . بل
يكفى التأمل في مسلمى الجزائر . هناك شعبان مختلفان العرب
والبرابرة . والاثنان مسلمان . وفرق بين اسلام هؤلاء واسلام
هؤلاء . البرابرة لا يعتقدون الا بزوجة واحدة ولا يعترفون
بتعدد الزوجات الوارد في القرآن . واسلامهم مشوه جداً
بعبادة الأوثان التى ألفوها منذ العصور الخالية أيام سيادة
قرطاجة

كذلك لم تنج الديانات في أوروبا من التحوير بحسب
اختلاف الأمم التى اعتنقتها . ففيها من حافظوا على لفظ
القواعد التى وردت في الكتب . ولكنها صيغ ذهبت كل أمة
في تفسيرها مذهباً يخالف مذهب غيرها . فبين الأوروبيين
الذين يتسمون بالنصارى من هو وثى صرف كسكان بريتانيا
السفلى الذين يعبدون الاصنام . وكالأسبانيين الذين يعبدون
آلهة من المخلوقات . وكالتليانيين الذين يؤلهون تماثيل العذراء
في القرى . واذا تعمقنا في البحث وجدنا مذهب البروتستانت
أت من اختلاف أمتين متغايرتين في تفسير كتاب واحد .
أمم الشمال التى مالت الى البحث في معتقدها بنفسها وتقرير

أمور حياتها . وأمم الجنوب الباقية على حالة من التأخر في الاستقلال والنظر الفلسفي . وهذا أوضح مثال في بحثنا تبعد بنا الشقة إذا أردنا شرح هذه المشاهدات ومع ذلك فإننا نمرّ مروراً على عنصرين آخرين من عناصر المدنية وهما المنظمات واللغات لكيلا نضطر الى الدخول في تقريرات اصطلاحية تخرج عن دائرة هذا الكتاب

ما صح في جانب الديانات صحيح في جانب المنظمات بمعنى أن هذه أيضاً تتحوّر اذا انتقلت من أمة الى أخرى . واني لا أطيل القول وأكتفي بالفت القارىء ليرى بنفسه في زمننا هذا كم تغير النظام الواحد بحسب الأمم التي أقرته مع اتحاد اسمه فيها كلها سواء كان اقراره بالقوة القاهرة أو من طريق الاقناع . وسأشرح ذلك في فصل آخر عند الكلام على أقاليم أمريكا

المنظمات ثمرة الحاجات . ومما لا شبهة فيه أن ارادة جيل واحد لا يمكن أن تؤثر فيها . فلكل أمة ولكل دور من أدوار تطور هذه الأمة أحوال خاصة في كينونتها ومشاعر وأفكار وآثار موروثه . وهذا كله يستلزم نظمات خاصة ولا

يحتمل غيرها . واسم الحكومة لا دخل له في ذلك . وما من
أمة استطاعت أن تقرر عندها من النظمات أحسنها بحسب
ما ظهر لها . ولو أنها أقرتها اتفاقاً وهو ما لا يقع إلا نادراً جداً
فإنها لا تقدر على استبقائها . ولقد كانت الانقلابات والتغيرات
النظامية التي تمر علينا منذ قرن كافية لاقتناع رجال السياسة
عندنا بهذه الحقيقة . بل انى أظن أنه لم يعد أحدي يرى أن
التغيرات الاجتماعية الهامة يسهل إحداثها بمجرد إصدار
الأوامر العالية بها اللهم إلا ذوى العقول المعوجة من العامة
والأغفأ من قصار النظر المتعصبين . والحقيقة أنه لا شأن
لنظمات ولا فائدة منها إلا من جهة كونها تقرر التحول الذي
حصل في الأخلاق وانتدح في الأفكار فهي تابعة له لا متقدمة
عليه . وليست النظمات هي التي تغير من أخلاق الناس
وأفكارهم . وليست هي التي تجعل أمة متدينة أو قليلة الإيمان
ولا هي التي تعلم الناس حكم أنفسهم بأنفسهم أو تجعلهم يطلبون
على الدوام من الحكومة أن تضع في أعناقهم سلاسل واغلالاً
وكما أجملت القول في النظمات أجمله في اللغات فأكتفي
بالإشارة إلى أن اللغة تتغير وإن كانت مقررة بالكتابة متى

انتقلت من أمة الى أخرى . وهذا هو الذى يجعل فكرة
ايجاد لغة واحدة لجميع الأمم عملاً صعباً . نعم أخذت أمة
(الغول) بعد قرنين من فتوح الرومان اللغة اللاتينية ولكنها
حوّرتها سريعاً بحسب حاجاتها وصبغتها بصبغة معقولة وما
زالت بها حتى أخرجت منها اللغة الفرنسية الحاضرة

يستحيل على شعوب مختلفة أن تستمر على لغة واحدة
زمناً طويلاً . وقد تضطرّ الأمة بعامل الفتوحات أو ضرورة
التجارة أن تستعمل لغة غير لغتها الأصلية . إلا أنه لا يمر على
ذلك بضعة أجيال حتى تتغير اللغة الجديدة تغيراً كبيراً
ويكون التغيير أكبر على قدر الخلف بين الأمة الناقلة وبين
الأمة المنقولة عنها

ومن المحقق أننا نجد على الدوام لغات مختلفة عند الأمم
المختلفة ومن أول الأمثلة على ذلك بلاد الهند فشعوبها شتى
ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا العلماء يعدون لها مائتين وأربعين
لساناً . والفرق بين بعض هذه اللغات وبين البعض الآخر
أكبر من الفرق بين اللغة الاغريقية وبين اللغة الفرنسية .
وهناك أيضاً نحو ثلاثمائة عجمة . وأهم تلك اللغات أحدثها وهى

الهندستانية لأن عمرها لا يزيد على ثلاثمائة سنة . وهي مزيج
من اللغتين الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بهما الفاتحون
ومن الهندية التي كانت أكثر اللغات انتشاراً في الأقاليم التي
دخلوها . وقد نسي الغالب والمغلوب في زمن يسير لغتهما الأولى
واتخذوا اللغة الجديدة لساناً عاماً موافقاً للشعب الجديد الذي
تولد من اختلاط الفريقين كما تقدم

ولقد أكتفى هنا ببيان المسائل الأساسية وأقول اذا
اختلفت الأمم اختلفت معاني الألفاظ وان كانت متقابلة كأنه
لا ترادف فيها وتعذرت ترجمة إحدى اللغتين الى الأخرى .
يفهم ذلك مما هو مشاهد عند الأمة بذاتها في اللغة الواحدة .
فالكلمة يكون لها معنى في زمن وبعد بضع قرون يصبح لها
معنى آخر . والمعنى القديم هو الذي كان يجول بخاطر رجال
العصر القديم ثم تغيرت مدلولات الألفاظ بتغير الأفكار
والأخلاق والعادات وبقي الكلام حاصلاً بواسطة هذه
الألفاظ البالية لتعسر استبدالها . ولكنه لم يعد من نسبة بين
ما كانت تدل عليه وما صارت تدل عليه . واذا نظرنا الى الأمم
القديمة جداً ممن عرفت عنها حضارة لا نسبة بينها وبين

حضارتنا شعرنا بأن ترجمة لغتهم الى لغتنا لا تنتج الا ألفاظاً مجردة عن معانيها الأولى أى أنها لا تنقل الى أذهاننا الآصوفاً مخالفة كل المخالفة للتي كانت ترسمها فى أذهان القوم السابقين . وهذه النظرية أظهر ما تكون فى بلاد الهند فان الألفاظ عندهم لم تتقرر بطريقة ثابتة كما حصل ذلك عندها وذلك بتقلب الأمم الهندية فى أفكارها ولأنه لا قرابة بين معقولها ومعقولنا ولهم كتب مثل (الفيدا) يستحيل أن نترجمها وقد خابت مساع كثيرة فى هذا السبيل^(١)

ان من الصعب أن ندرك عذراً أفكار من نعيش معهم اذا افترقوا عنا بالعمر والجنس والتربية . وأعز من ذلك منالاً ادراك أفكار أمة تقادم عهدهما مهما بلغ منا العلم بل كلما استزدنا علماً زادنا اقتناعاً بعدم فائدة محاولة الوصول الى هذه الغاية هذه الأمثلة على ايجازها كافية فى بيان أهمية التغييرات التى تحدثها الأمم فى عناصر المدنية المأخوذة عن غيرها . وقد

(١) ذكر أحد المتضلعين فى العلوم الهندية وهو موسيو (بارت) محاولات ترجمة (الفيدا) ثم قال ويستخلص من هذه الأبحاث العديدة وكثيراً ما تناقضت نتائجها أمر واحد هو قصورنا عن ترجمة هذه الكتب اذا أردنا بالترجمة معناها الصحيح

يخيل أن التغيير عظيم لأن الأسماء تبدل لساعتها ولكنه في الحقيقة شيء يسير . ولا بد من تقلب الأجيال وتراكم أثر الوراثة حتى يظهر بوضوح تام أن العنصر المنقول يخالف العنصر الذي حل محله . وليس لهذه التغييرات مآخذ في التاريخ لأنه لا يهتم فيه إلا بالأشياء الظاهرة . وإذا قرأنا فيه أن أمة اعتنقت ديناً غير دينها الأصلي فالذي نفهمه من ذلك هو الدين على ما نعرفه منه حين نظرنا فيه . لا تلك المعتقدات التي اتخذتها تلك الأمة في الواقع ونفس الأمر . ويجب لمن يريد التفريق بين الألفاظ والحقائق الواقعة أن يطيل النظر في تلك التغييرات حتى يقف على كيفية سيرها ومقدار نموها وعلى ذلك نقول أن تاريخ المدينات يتألف من هذه الأدوار المتجددة شيئاً فشيئاً . وإذا خيل لنا أنها فجائية وهامة فذلك لأننا نقطع النظر عن التقلبات المتوسطة بين المبدأ والنهاية . ولأننا لا ننظر إلا إلى هذه الأخيرة

وحقيقة الأمر أن قدرة الأمة على تمثيل عناصر المدنية محدودة حدّاً مهما بلغت من قوة العقل وعلو الملكات . فإن خلايا الذهن لا تتمثل في يوم ما لم يتكون إلا في عدة قرون وما

لا يلائم إلا أمزجة تختلف عنها مشاعر وأخلاقاً . ولا يتأتى
تمثل هذه الموروثات إلا بضم مثلها على مهل . وسنرى عند
الكلام على تطور الفنون في أذكي أمة وهي أمة الاغريق في
الزمن القديم أنها قطعت أدهاراً حتى خرجت عن نقل
مصنوعات الآشوريين والمصريين نقلاً ممسوخاً ووصلت
بالتدريج البطيء الى تحفها التي لا يزال الناس يعجبون بصنعها
ما كان لجميع الأمم التي تعاقبت في التاريخ ما عدا بعض
القديمة جداً كالمصريين والكلدانيين إلا أن تمثل في الغالب
عناصر المدنية التي سبقتها بعد أن تكون كل واحدة قد أدخلت
عليها من التغيير ما يلائم مزاجها العقلي . ولولا ذلك لكان
تقدم الحضارة بطيئاً جداً ولوجب أن تبتدىء كل أمة تاريخها
على استقلال اذا لم تستفد من التي سبقتها . ألا ترى أن
الحضارة التي أوجدها المصريون أو الكلدانيون منذ سبعة
آلاف أو ثمانية آلاف سنة كانت موارد استقت منها الأمم
التالية واحدة بعد أخرى . فالفنون الاغريقية تولدت من
الفنون التي نشأت على ضفاف نهر الدجلة أو نهر النيل . ومن
الطراز الاغريقي تولد الطراز الروماني . وتأثر هذا بالمؤثرات

الشرقية فكان منه الطراز البيزنطي وطراز رومانيا والغوطي
على التعاقب . وكلها مختلفات بحسب روح الأمم التي تولدت
فيها وان كانت راجعة الى أصل واحد

وما قلناه في الفنون يصدق على بقية عناصر المدنية من
نظامات ولغات ومعتقدات . فاللغات الأوروباوية مشتقة من
لغة كانت مستعملة في العصر الحالي في سهول آسيا . وعلم
حقوقنا ابن علم حقوق الرومان وهذا مقتبس مما تقدمه .
والديانة الموسوية مشتقة مباشرة من ديانة الكلدان . ثم
اختلفت بمعتقدات الآريين فأصبحت ذلك الدين الذي تدين
به أوروبا منذ ألفي سنة على التقريب . كذلك علومنا ما كانت
تصل الى شأنها الحاضر لولا ما فعلته الدهور الخالية فيها .
فعظماء واضعي علم الفلك الحاضر مثل (كوبرنيك) و(كيبلر)
و(نيوتن) يتصلون ببطليموس صاحب الكتب التي تداولت
في تعليم هذا العلم الى القرن الخامس عشر . ويتصل ببطليموس
من طريق مدرسة الاسكندرية بالمصريين والكلدان . هكذا
ينهض من خلال ذلك النقص الفادح الذي نراه في تاريخ
حضارة الأمم تطور بطنى في معارفنا نرجع فيه بين العصور

الماضية والأُمم الخالية حتى نصل الى فجر الحضارات الأولى .
والعلماء يحاولون الآن الرجوع بذلك أيضاً الى الزمان الذي
لا تاريخ للإنسان فيه . ومع أن الأصل واحد فما أكثر
التغيرات التي أدخلتها عليه الأُمم نهوضاً وتأخراً طبقاً لمزاجها
العقلي . وتاريخ الحضارة ليس إلا تاريخ هذه التقلبات
ومما تقدم يتضح أن العناصر الأولية التي تتكون منها
مدنية أمة من الأُمم خاصة بتلك الأمة . وأنها خلاصة معقولها
وانها لا تحتل الانتقال منها الى غيرها بدون تحوير كبير .
وأن الذي يحجب هذا التحوير هي الضرورات اللغوية التي
تجعلنا نعبر بالفاظ متساوية عن معانٍ مختلفة ثم الضرورات
التاريخية التي تجعل القارئ لا يرى من الحضارة إلا دورها
الابتدائي والذي انتهت اليه دون الأدوار التي تجمع بينهما .
وسنبين بأجلى وضوح في الفصل الآتي المختص بتطورات
الفنون كيف يتعاقب التحوير على أهم عناصر المدنية بانتقالها
من أمة الى أخرى

لفصل الثالث

كيف تتغير الفنون

تطبيق النظريات المتقدمة على تطور الفنون عند الأمم الشرقية — مصر —
الأفكار الدينية التي ترجع اليها فنونها — ما صارت اليه هذه الفنون بالتقاليد
الى أمم أخرى مختلفة عن المصريين كالإيتوبيين والاعريق والفرس — انحطاط
الفن الاعريق في عصره الأول — بطء تطوره — انتقال الفن الاعريق الى
الفرس وتطوره عندهم وكذا فنون الآشوريين والمصريين — في أن تغير الفنون
راجع الى الأمة ذاتها لا الى المعتقد الديني — التمثيل لذلك بالتغيرات الكلية التي
طرات على الفنون العربية بحسب اختلاف الأمم التي دانت بالاسلام — تطبيق
هذه النظريات في البحث عن أصول فنون الهند وتقلباتها — في أن الهند والاعريق
استقيا من مصدر واحد ولكن اختلاف الأمة جعل لكل منهما فناً لا نسبة
بينه وبين فن الأخرى — تقلبات الفنون الكلية التي حصلت في الهند باختلاف
الشعوب التي تقطن تلك البلاد رغم اتحاد المعتقدات الدينية

أوجزت القول في بيان النسبة بين مزاج الأمة العقلي
وبين نظاماتها ومعتقداتها ولغتها والآلزم لشرح ذلك شرحاً
وافياً مؤلفات جمة
غير أن الشرح الوافي في الفنون أسهل بكثير . أما

النظمات أو الدين فمقولة بالتشكيك وقابلة لتأويلات غامضة .
والباحث فيها مضطراً الى تلمس الوقائع المختلفة باختلاف
الأزمان والمستورة في طيات كتب ذهب روحها . والى
الاشتغال بالتدليل والنقد والتنقيب . هو لا يصل بعد ذلك
الا الى نتائج غير مجمع عليها . وأما المصنوعات الفنية وأخصها
المباني الأثرية فانها محدودة جداً كاملاً . وتفسيرها سهل للغاية .
فكتب الحجارة أجلى الكتب وضوحاً . وهي التي لا تكذب
أبداً . وهذا هو السبب في أنى جعلت لها شأنًا هاماً فيما
كتبت عن الحضارة الشرقية . ولقد كنت على الدوام في
أشدّ الحذر من الكتب الأدبية فانها تضل غالباً ولا تفيد
الأقليل . وأما الآثار فقلما تضل من يستهدي بها . وهي
تفيد دائماً . وهي أصدق حفيظ على فكر الأمم التي بادت .
وإنا لنبكي من أولئك الاختصاصيين الذين عميت عقولهم
فلا يبحثون فيها الا على النقوش . فلنبحث الآن في كون الفنون
عنوان مزاج الأمة العقلية . وكيف أنها تتغير بالانتقال من
حضارة الى أخرى

وسأقصر بحثي على الفنون الشرقية . لأن الفنون الأوروبية

وان كانت لا تخرج عن النظريات ذاتها كما بيناه الا أن
بيان تطورها عند الأمم المختلفة يقتضى توسعاً لا يحتمله هذا
الكتاب الصغير

ولنبداً بفنون مصر لنعلم كيف تغيرت بانتقالها الى ثلاث
أمم على التتابع وهى زنوج (ايتيوبيا) و (الاغريق) و (الفرس)
ليس من بين الحضارات التى ازهرت فى المسكونة كلها
ما يتم التدليل عليه بالفنون كحضارة المصريين فانها ظهرت
بوضوح وجللاء جعلها خاصة بصفاف النيل بحيث تستعصى
على الانتقال الى أمة أخرى من دون أن تتغير تغيراً كلياً
خرجت الفنون المصرية وأخصها الأبنية عن خيال خاص
وضمته الأمة نصب أعينها مدى خمسين قرناً كاملة . فقد كانت
مصر تحاول أن تجعل للانسان مقاماً خالداً بدل حياته الفانية .
خالفت من عداها . واحتقرت الحياة . وخطبت ودّ الوفاة .
ولم تهتم بشئ اهتمامها بالموميا الصامته الشاخصة مدى الدهر
من ظلمات مقرها الى ذلك النقش الهيروغلىفى بعينين
مموهتين بالميناء وسط وجه ذهبي . فكانها ترنو فى قبرها
الفسيح وهى فيه كالقصر المشيد آمنة من عبث الزمان الى كل

ما حنت اليه أيام الحياة مما نقش على جدران السرايب التي
لأنهاية لها . فالعمارات المصرية هي أولاً وبالذات مباني أحزان
ودين . الغرض منها أن تكون مقاماً للموميات والآلهة .
لأجل ذلك تقبت السرايب . ورفعت المسلات . ونصبت
العمد . وشيدت الأهرام . ومن أجل ذلك استوت تماثيل
أبي الهول على عروشها الصخرية تعلوها سماء السماحة والجلال .
وكل شيء في هذه العمارات ضخم مكين . ذلك لأنها كانت
تشاد لتبقى . ولو أن المصريين كانوا الأمة الوحيدة التي
عرفناها من التاريخ القديم لقلنا أن الفنون أصدق مصدر
لروح الأمة التي أوجدتها

ثم جاءت أمم مختلفة . منها المنحطة كالإتيوبيين . ومنها
الراقية كالإغريق والفرس . واتحدت عن المصريين وحدهم أو
عنهم وعن الآشوريين فنونهم . فما الذي طرأ على هذى الفنون
بين تلك الأمم ؟ إليك ما كان شأنها في أحط تلك الأمم
أعني في إيتيوبيا

من المعلوم أن الأمم السودانية انتهزت فرصة قيام
الفوضى وحلول زمن الانحطاط في مصر بعد أن خطت شوطاً

طويلاً في تاريخها أعنى أيام العائلة الرابعة والعشرين فاستولى
السودانيون على بعض ولاياتها . وأقاموا مملكة كانت عاصمتها
أولاً مدينة (نباتة) . ثم انتقلت الى مدينة (مروي) .
ودامت على استقلالها بضع قرون . وقد بهرتها حضارة
المغلوب . فأخذت تنقل آثارها وفنونها . وبين أيدينا بعض ما
أنتجته بهذا التقليد . ولكنه تقليد فطري ممسوخ في الغالب .
لأن أولئك الزوج كانوا برابرة محكوماً عليهم بمقتضى انحطاطهم
العقلي بالبقاء في الهمجية . وهم في الواقع لم يخرجوا منها رغم
حضارة المصريين التي دامت تعمل فيهم قروناً عدة . ولا يوجد
في التاريخ القديم ولا الحديث ما يدل على أن أمة من الزوج
ارتقت في الحضارة الى درجة ما . وما وقعت بحكم الاتفاق
حضارة راقية في يد أمة زنجية إلا أسرع اليها الانحلال
وسقطت الى درجة تعيسة من الانحطاط . كذا كان شأن
الحضارة عند الايتوبيين في الزمن القديم . وكذا شأنها
لدى أمة (الهايتي) في العصر الحاضر

ثم جاءت أمة أخرى ولكنها بيضاء تقيم في عرض آخر
وهي أمة الاغريق ونقلت عن مصر وأشور نماذج منها الأولى

في مبدأ الأمر وكان نقلها نقلاً ممسوخاً . وكانت تلك النماذج تأتيتها على يد الفينيقيين الذين كانت لهم طرق المواصلات البحرية الجامعة بين الشواطئ وعلى يد أمم آسيا الصغرى أصحاب السيادة على الطرق البرية بين نينوى وبابل

نعم ليس من ينكر أن الأمر انتهى باليونان فتفوقوا على أسانذتهم . ولكن أبحاث الأثريين في عصرنا هذا دلت دلالة واضحة على شدة قصورهم في مجهوداتهم الأولى . وأنه مرت بهم قرون حتى وصلوا الى ابراز تحف الفنون التي خلدت ذكرهم الى الأبد . وأن وصولهم الى هذه الغاية اقتضى سبعائة عام حتى احتملوا هذا العبء وصار لهم فن اختصاص به دون غيرهم من الأمم . وكان تقدمهم في القرن الأخير أكثر من تقدمهم في الزمن السابق كله . ذلك لأن أطول الأدوار التي تقطعها الأمم في حضارتها هي الأولى لا الأخيرة

وأقدم آثار الاغريق الفنية كنوز (ميسين) في القرن الثاني عشر قبل المسيح تدل على أنهم كانوا همجاً في تقليدهم مصنوعات الشرقيين . فلم تزل عنها مسحتها الشرقية مدى ستة قرون . فتمثال (أبولون) في (تينيا) وفي (اورخوميا)

يشبه التماثيل المصرية شبهاً كلياً . الا أنهم من ذلك الحين اتسعت خطاهم . وما مضى قرن حتى برزت الى الوجود تماثيل (فيدياس) و (البارثينون) . وهى محدثات فن خلص من مسحة أصله الشرقى وفاقه بعد أن نقل عنه دهرأ مديداً وكذلك كان الشأن فى فن العمارات وان كان بيان الأدوار التى قطعها أقل سهولة . لأننا نجعل ما كانت عليه القصور التى جاء ذكرها فى قصة (هوميروس) قبيل القرن التاسع قبل الميلاد . ولكن الذى ذكره لنا عنها من جدران نحاسية وقم لامعة الألوان وحيوانات ذهبية وفضية أقيمت فى المداخل كالحراس كل هذا يذكرنا قصور الآشوريين المغطاة بصفائح النحاس والآجر المموه تخنقها ثيران منحوتة فى الأحجار . ومع ذلك فإننا نعرف أن مثال أقدم العمدة (الدورية) الذى يرجع الى القرن السابع قبل المسيح موجود فى الكرنك وبنى حسن بالديار المصرية . وأن أغلب أجزاء العمدة المسماة (يونية) مأخوذ من عمدة كانت للآشوريين . كما نعلم أيضاً أن هذه الاستعارات كانت تضاف الى بعضها فى أول الأمر ثم مزجت ثم حوّرت وخرج منها بعد ذلك

نوع من العمد مخالف جداً لأصله
ثم جاءت أمة مقرها في الطرف الثاني من الدنيا القديمة
وهي الفرس وتمثلت الفنون وحوّرتها كما فعل الاغريق .
ولكن التطور لم يبلغ غاية عندها . لأن الاجنبي فاجأها
بالفتح فوقفت حركة حضارتها ولم يترك لها الزمان لايجاد
فنونها الا قرنين اثنين لا سبعة قرون كما ترك للاغريق . فلم
يظهر على وجه المسكونة الاّ امة واحدة أمكنها أن تبرز
للوجود فناً خاصاً بها في زمن قصير مثل هذا وهي الأمة
العربية

يبدأ تاريخ الفرس مع (قورش) وخلفائه الذين استولوا
قبل المسيح بخمسة قرون على بابل ومصر وهما الوسطان
العظيمان اللذان كان مجد الحضارة يشرق منهما على الأمم
الشرقية . واما الاغريق وهم الذين كان الزمان ينحىء لهم مثل
ذلك الفتح فما كان لهم ذكر في ذلك الحين . وصارت الدولة
الفارسية قطب دائرة المدنية الى ثلاثة قرون قبل الميلاد أنزلها
الاسكندر عن عرشها وحوّل بذلك مركز المدنية في الدنيا .
ولم يكن للفرس يوم استيلائهم على مصر وبابل فن خاص .

فنقلوا عنهما النماذج واستعاروها الصنائع . ولما لم تدم دولتهم
أكثر من قرنين لم يسعهم الوقت لتغيير الفنون تغييراً جوهرياً .
ولكنهم كانوا بدأوا بتحويلها تحويلاً كبيراً ابّان سقوطهم .
ويستدل على هذه التغييرات بأطلال (فرسوپوليس) الباقية
حتى الآن . هناك نشاهد الجمع بين فنّي مصر وأشور
وبينهما شئ من فنون الاغريق . ونشاهد أيضاً آثاراً جديدة
أخصها عمود تلك المدينة وتاجه ذو الرأسين . وذلك يدلنا
على أن الفرس وهي أمة راقية كانت تبلغ درجة الاغريق ان
لم يكن في اتقان الصناعة ففي استخلاص طراز خاص بها لو
أماها الزمان . ودليلنا على ذلك أيضاً آثارهم بعد عشرة قرون .
فقد قامت عائلة السلوقيين بعد عائلة الأخمينيين الذين
أجلاهم الاسكندر عن الملك ثم من بعدهم عائلة (الأرشيديين)
وأخيراً عائلة (الساسانيين) الذين قهرهم العرب في القرن السابع
بعد الميلاد . ففي عصرهم صار للفرس فن عمارات جديد . فاذا
بنوا أثراً كان له مساحة خاصة لا يمتاز فيها مقتبسة من الفن
العربي وفن (الأخمينيين) القديم وشئ من فن (الأرشيديين)
المنقول عن الفن الاغريق . أبواب شاهقة تبلغ ذروة البناء .

ولبن مموهة . وقناطر (ستينية) وغير ذلك . وهذا الفن الجديد هو الذى نقلته أمة (المغول) الى الهند بعد ان حوّرته بحسب ما اقتضته طبيعتها

وفي الأمثلة المتقدمة بيان درجات التحوير التى تدخلها أمة على فنون أمة أخرى . وأنها مختلفة باختلاف طبيعة الأمتين وباختلاف الزمان الذى قطعه الأولى في ادخال ذلك التحوير

لذلك رأينا أن الفنون سقطت عند أهل ايتيوبيا مع مطاولة الزمان بسبب ضعف مقدرتهم العقلية . وأن الأمة الراقية التى وجدت من الزمان متسعاً كالليونان أمكنها أن تنزع من الفن القديم فناً جديداً أو أن تتفوق فيه . وأن الأمة التى هى أقل رقياً كالفرس ولم يكن لديها الزمن الكافى أظهرت حذقاً في تمثيل فنون غيرها وبدأت في تحويرها

وعندنا غير هذه الأمثلة التى أخذناها في أزمان أغلبها بعيد عنا أمثلة أخرى أقرب عهداً ولها آثار لا تزال بيننا . وهى تبرهن على عظمة الانقلاب الذى تضطرّ الأمم لاحدائه في الفنون المنقولة اليها . وهذه الأمثلة آكد في الدلالة لأنها

مأخوذة عن أمم تدين بدين واحد وانما تختلف عن بعضها
في الجنس وهى الأمم الاسلامية

لما استولى العرب في القرن السابع من الميلاد على القسم
الأكبر من الدنيا القديمة الاغريقية الرومانية وأقاموا صرح
تلك الدولة العظيمة التي امتدت على عجل من الأندلس الى
قلب القارة الآسيوية مارة بشمال أفريقيا كله وجدوا أمامهم فن
عمارة ذا شخصية كاملة وهو الفن البيزنطى فتمثلوه بادىء بدء
في مساجدهم سواء كان ذلك في الأندلس أو في مصر أو الشام
كما يشهد به الجامع العمري في دمشق وجامع عمرو في القاهرة
وغيرهما مما لا يزال قائماً حتى الآن . ولكن ذلك لم يدم طويلاً
وما أسرع ما بدأ العرب في تحوير العمارة بحسب البلدان
من قرن الى آخر . وقد شرحنا سلسلة هذا التحوير في كتابنا
(مدنية العرب) وهو تحوير كلى للغاية بحيث أنه لا يوجد
أدنى شبه بين أثر من آثار عصر الفتح الأول لجامع عمرو في
مصر سنة ٦٤٢ وبين أثر من آثار آخر عهد الدور العربى العظيم
لجامع قايد باى بها أيضاً سنة ١٤٦٨ . وقد أوضحنا هناك
بالشرح وبالصور أن بين الآثار اختلافاً كلياً في البلاد التي

دانت للإسلام كاسبانيا وأفريقيا وسوريا والعجم والهند .
حتى أنه يتعذر إطلاق اسم واحد عليها كما يسهل ذلك بالنظر
للآثار الغوطية مثلاً . لأنها وإن اختلفت بعض الاختلاف
لا تخلو من المشابهة

ولا يمكن أن تكون هذه الاختلافات الكلية في العمارات
بالبلاذ الإسلامية آتية من اختلاف المعتقدات إذ الدين فيها
واحد . ولكنها راجعة إلى اختلاف الشعوب وهذا الاختلاف
يؤثر في تطور الفنون تأثيراً جوهرياً كما هو شأنه في أحوال
الأمم ذاتها

وإذا صحت هذه النظرية لزمنا أن ننتظر من بلد تسكنها
شعوب مختلفة الأجناس آثاراً متباينة كل التباين رغم اتحاد
الدين ووحدة الدولة . وهذا هو الواقع كما يشاهد في الهند .
ففي الهند يسهل الوقوف على أمثلة تؤيد ما قررناه في هذا
الكتاب . ولذلك أراني أعود إليها حيناً بعد حين
الهند كتاب تاريخي دونه كل الكتب حكمة وبياناً .

فهو البلد الوحيد الذي ينتقل فيه زائره من زمن إلى زمن
بمجرد انتقاله من ناحية إلى أخرى . وتجلي أمامه أدوار الحياة

التي قطعها الانسانية منذ نشأتها الى أن وصلت الى ذروة المدنية . هنالك أشكال التقلبات كلها : فللعصر الحجري مشخصات : ولعصر البخار والكهرباء مميزات . والحاصل أنه يتعذر على الباحث أن يشاهد أثر عوامل المدنية وسلسلة تطوراتها بأحسن ما يراه في البلاد الهندية

كانت لدى مسألة أحاول حلها منذ زمن بعيد هي معرفة أصل الفنون الهندية . فلما طبقت النظريات التي قررتها في هذا الكتاب اهتديت الى ما كنت أرجو . ولما كان الموضوع غير مطروق إلا يسيراً وهو مما تنطبق عليه أفكارنا في علم النفس المتعلق بالشعوب وجب أن نلخص منه ما تهتم معرفته

لم يظهر للهند أثر في الفنون إلا بعد التاريخ بزمن طويل . فأقدم آثارها لا يبعد عن تاريخنا بأكثر من قرنين مثل عمد (آسوكا) ومعابد (كارلي) و(باهوتا) و(سنش) وغيرها . وأيام بنيت هذه الآثار كانت حضارة الأمم القديمة أعنى حضارة مصر والفرس وأشور أتمت دورتها وظلماتها غياهب الاندثار . وقامت مدنية واحدة مقام كل المدنيات أعنى مدنية روما وأصبحت الدنيا لا تعرف إلا سيداً هو روما

ولقد أمكن للهند أن تقتبس شيئاً كثيراً من تلك
الأمم القديمة يوم أخذت تطفو متأخرة بين ظلال التاريخ .
الآن العزلة التامة التي ساد على الأذهان أنها كانت تعيش
فيها وذاتية مبانيها الغربية التي لا قرابة بينها وبين جميع الآثار
المتقدمة عليها جعلتا الباحثين يعتقدون زمناً طويلاً أنها لم
تقتبس من ذلك شيئاً . أضف الى تلك الذاتية التي لا يجادل
فيها أحد ما في الآثار الهندية الأولى من اتقان الصنع والتفوق
في الابداع مما لم ترد فيه بعد ذلك . ولا بد أن تكون هذه
الآثار المنيفة مسبوقة بتجارب بعيدة الأمد . الآن الباحثين
تعبوا ولم يعثروا على ما يصلون منه الى هذه التجارب السابقة
وقد اكتشفت في العهد الأخير في بعض الأقاليم النائية المنعزلة
بقايا تماثيل تظهر فيها آثار الفن الاغريقي فذهب العلماء
المشتغلون بالهند الى أنها أخذت الفن عن الاغريق

لكن تطبيق النظريات التي شرحناها في هذا الكتاب
وتدقيق النظر في الآثار التي لا تزال باقية حتي الآن حملنا على
استنتاج نتيجة تخالف ما ذهب اليه أولئك العلماء . فنحن
نرى أن الهند لم تأخذ عن الاغريق فنهم . وما كان في استطاعتها

ذلك وان اختلطت بعض الاختلاط عرضاً بحضارتهم . لأن
الأميتين كانتا مختلفتين اختلافًا كلياً في الجنس والفكر والحداقة
الفنية الى درجة يستحيل معها أن تتأثر احدهما بالأخرى .
والبحث في الآثار المنشورة في الهند يؤدي الى أنه لا نسبة بين
الفنين . فبينما تشاهد آثارنا ملأى بما ينم عن فنون الاغريق
لا يمكننا أن نرى شيئاً من ذلك في الآثار الهندية . بل ان
البحث السطحي يرشدنا الى أن الأميتين مختلفتان كل الاختلاف
بحيث لم يوجد في العالم أمتان اختلفتا بل أقول تنافرتا كما تنافرت
الهند والاعريق . وتزداد هذه المشاهدة وضوحاً كلما تقدمنا
في البحث في آثار الهند وفي الأطوار النفسية للشعوب التي
أقامتها . اذ يتبين أن روح الأمة الهندية روح خاصة بها
ومستقلة عن غيرها استقلالاً يتعذر معه تأثرها بمؤثر خارجي
بعيد عن معقولها . نعم يمكن قهرها من جانب هذا المؤثر
الأجنبي ولكنه مهما طالت مدته يبقى سطحيًا وعرضيًا .
فكأنما بين شعوب الهند على اختلافها وبين بقية الأمم فروق
تبلغ في ضخامتها تلك الفواصل الطبيعية الموجودة بين بلادهم
وبين بلاد المسكونة الأخرى . الروح الهندية مستقلة استقلالاً

تاماً ومهما كان النموذج الذي تلجئها الضرورة الى تمثله فانه
ينقلب حتماً فيصير شيئاً هندياً . حتى أنك لتجد تلك الروح
الغريبة التي لا تلبث أن تقلب حقيقة الآثار بادية في العمارة
حيث يصعب اخفاء الاستعارة . ومن الجائز حمل معمارى
هندى على تقليد نصب أغريقية . الا أنه لا يلبث أن يقلبها
فتراها من أول نظرة نصباً هندياً بل لا تزال تشاهد هذا
التغير في أيامنا مستمراً مع قوة النفوذ الأوروبى . فاذا أعطيت
الى صانع هندى نموذجاً أوروبياً أياً كان ليصنع نظيره رأيته
يحافظ على هيئة العامة ولكنه يبالغ فى صنع بعض أجزائه
ويزيد فى زخرفته وهو يغيره ويبدله . وفى المدة الثانية أو الثالثة
يكون قد جرده من كل مسحة أوروبية وجعله هندياً صرفاً
وأهم صفة يمتاز بها فن العمارة الهندى هى شدة الإكثار
من الجزئيات والتعقيد فى التركيب على عكس الفن الاغريقى
المتماز بالبساطة من غير نقص . وتلك الصفة موجودة أيضاً
فى صناعة الأدب عند الهنود وهذا هو الذى يجعل الفنين
متمقارين . وبالتأمل فى الفن الهندى يتبين الارتباط الشديد
بين المصنوعات الخزفية وبين مزاج الأمة العقلى . وهى أفصح

لساناً لمن عرف كيف يستنقطها . ولو فرضنا أن الهنود انقرضوا
كما انقرض الاشوريون لدلتنا النقوش البارزة في معابدهم
وتماثيلهم ومبانيهم الأثرية على ماضيهم . ولعلمنا منها على الأخص
أنهم لشدة خيالهم وفقدان ملكة النظام فيهم لم يتأثروا أقل تأثير
بما برع الاغريق فيه من حسن الترتيب وشدة الوضوح .
ولفهمنا أيضاً السبب في أن أثر الاغريق فيهم لم يكن إلا
عرضياً لا يتعدى المحل الذي أخذه عندهم في مبدإ انتقاله .
وقد توصلنا بالتأمل في آثارهم الى أن تؤيد بالأدلة القاطعة صدق
الحدس الذي يتحصل عند من لا يعرف الهند ومعقولها الا
معرفة اجمالية . اذ ثبت من البحث الدقيق أن ملوك الهند
كانوا على ارتباط مع ملوك الفرس (الارخيديين) . وكان أثر
الاغريق بادياً في حضارة الفرس . وأن ملوك الهند حاولوا
مرات عديدة وعلى الأخص في القرنين الأولين للميلاد ادخال
الفنون الاغريقية عندهم ولكنهم لم يتمكنوا من استبقائها .
بل ما لبثت أن اندثرت بزوال الملك من يد الذين نقلوها .
وذلك للتنافر بين تلك الفنون وبين مزاج الأمة العقلية فلم تكن
تقبله إلا بقاهر السلطان . بل أن التنافر بلغ حداً تعذر معه

أن تتأثر الفنون الأهلية بالفنون الاغريقية في أيام أولئك
الملوك أنفسهم . لأننا لا نجد في آثارهم التي شيدوها في ذلك
العصر ولا في التي بعدها كالمعابد الموضوعة تحت الأرض أثراً
للفن الاغريقى . وليس ذلك الأثر بالشئ الذى تتعسر مشاهدته .
فترى المجموع هندياً صرفاً ولكن بعض الجزئيات وعلى
الأخص الفرش تدل على أنها نسقت بيد صانع اغريقى
وكما ظهرت الفنون الاغريقية فجأة في بلاد الهند اختفت
منها فجأة لما بينها وبين ميول الأمة من التباين . وهذا يدل
على أنها كانت مجلوبة اليها بقاهر الملك ولأن العادة في اندثار
الفنون عند الأمم ليست كذلك . بل الفن يتحول ويبقى
أثر الجديد مشاهداً في القديم . أما الفن الاغريقى فانه جلب
جملة الى الهند واندثر مرة واحدة وكان أثره فيها مفقوداً كأثر
المباني الأوروبية التي يقيمها الانجليز في تلك البلاد منذ مائتى عام
وعدم تأثير الفنون الأوروبية في الهند مع خضوعها
لحكومة تامة السلطان منذ قرن شبيه بعدم تأثير الفن
الاغريقى فيها قبل ذلك بألف وثمانمائة عام . فليس من ينكر
حينئذ أن هناك تنافراً في تصور التنسيقات الفنية . بدليل

أن أقاليم الهند كلها قلدت فنون العرب وهم غرباء عنهم
كالأوروبيين . حتى في الأقاليم التي لم يصل أثر العرب إليها
قد لا تجد معبداً ليس فيه شيء من زخرف العرب . نعم يوجد
الآن كما وجد في الأزمان البعيدة عنا أيام حكم الملك (كانشيكا)
راجاوات منهم راجا (جقالبور) خلبتهم عظمة القوة الأوروبية
فشادوا لأنفسهم قصوراً أوروبية على الطراز الاغريقي
اللاتيني . ولكن هذا الفن الرسمي بقي كما كان أيام (كانشيكا)
بمعزل عن الفن الأهل من دون أن يؤثر فيه

ويستنتج من ذلك أن الفن الاغريقي والفن الهندي
عاشا معاً جنباً لجنب في الماضي كما هو الحال في الفن الأوروبي
والفن الهندي في الزمن الحاضر ولم يتأثر أحدهما بمجانبته .
فلا يوجد بين أثر واحد من آثار الهند الحقيقية وبين أثر
اغريقي شبه في المجموع أو في الأجزاء ولو بعيداً جداً . ذلك
أمر يستوقف المتأمل في آثار الهند . ولا شك في أن سببه
التنافر بين روح الأمتين كما قدمنا لا عدم أهلية الهنود
الفطرية في تمثيل فن أجنبي . لأنهم تمثلوا وصوروا من الفنون
ما وافق تلك الروح

دلتنا المشاهدات المعمارية التي جمعناها أن الهنود اقتبسوا
الفنون في مبدأ الأمر من الفرس الذين ورثوا حضارة
الأشوريين والمصريين لا الذين كانوا في عهد الملوك
(الأرخيديين) . ومن المعلوم أنه لما فرق الاسكندر شمل
الملوك (الاخميديين) سنة ٣٣٠ قبل الميلاد كان للفرس حضارة
زاهرة قبل ذلك بمائتي عام . نعم أنهم ما كانوا اهتمدوا الى طراز
جديد في الفنون ولكن مزج فنون مصر وأشور كان قد أخرج
لهم صنعاً بديع المثل . ويستدل على ذلك بآثار (برسوپوليس)
الباقية الى يومنا هذا حيث تشاهد المداخل المصرية الضخمة
والثيران الأشورية ذات الأجنحة . وكذا بعض جزئيات
من الفن الاغريقي . وكل هذا يحمل على القول بأن فنون
الحضارة الكبرى في ذلك الزمان اجتمعت في تلك البقعة
الآسيوية الصغرى

اذن أخذ الهنود الفن عن الفرس . ولكن الذي أخذوه
هي فنون السكلمان ومصر لأن الفرس انما استعاروا تلك
الفنون ولم يغيروها

والبحت في آثار الهنود يرشد الى المصدر الذي استقوا

منه في بادئ الأمر . ولذلك يجب لمن يريد الوقوف على هذه الاستعارة أن يوجه نظره الى أقدم آثارهم لأن الروح الهندية ذاتية الى درجة لا تجعلهم يبقون زمناً طويلاً على طراز لم يكن لهم حتى يبدلوه ويصيروه مخالفاً للأصل مخالفة تامة والسبب في أن الهند قصرت عن الأخذ من فنون الاغريق وأخذت عن الفرس بسهولة كبيرة كون فنون هذه الأخيرة ملائمة لمزاجهم العقلي دون الأولى . لأن الآثار الاغريقية بسيطة الشكل قليلة الزخرف فلا تعجب الهنود بخلاف الآثار الفارسية ذات التراكيب الكثيرة والزخرف المبالغ فيه والزينة الفائقة فانها تبهر عقولهم وتأخذ من نفوسهم حتى أن تأثير الفنون الفارسية في الهنود لم يكن قاصراً على الزمن السابق على تاريخ المسيح أيام كان الفرس وارثي حضارة مصر وأشور . بل ظهر أيضاً بعد ذلك بعدة قرون أيام ظهور الاسلام لأن المسلمين طرخوا بلاد الفرس قبل ظهورهم في الهند وكانت حضارتهم أخذت عن حضارة الأولين شيئاً كثيراً . فالفن الذي نقلوه الى الهند هو فن فارس على الأخص . وكانت آثار الأشوريين التي دامت في أيام

(الأخمينيين) لا تزال بادية فيه مثل مداخل المساجد الهائلة ولا سيما الآجر المموهة التي كانت تصفح به وذلك من بقايا حضارة الكلدان والآشوريين . وقد تمثل الهنود هذه الفنون لأنها كانت توافق ميولهم وأما الفن الاغريقي القديم والفن الأوروبي في هذا العصر فانهما يجافيان مشاعرهم وينابذان ميولهم . ومن أجل هذا لم يكن لهما فيهم من أثر

ثبت حينئذ أنه لا صلة بين الهند والاغريق من حيث الفنون كما يذهب علماء العمارة الى يومنا هذا . وانما ترجع صلتهم الى مصر وأشور من طريق الفرس فالهند ما اقتبست من الاغريق ولكن الأمتان استقتا من ينبوع واحد هو ذلك الكنز العام مصدر المدينيات كلها . وهو الذي جمعته على طول الدهور مصر واشور . استقي منه الاغريق على يد الفينيقيين وأهل آسيا الصغرى . واستقي منه الهنود على يد أهل فارس . فحضارة الاغريق وحضارة الهند فرعان من نهر واحد . الا أن كل فرع جرى مجرى خاصاً فاختلف عن أخيه كما اختلف روح الأمتين

ولما كانت الفنون مرتبطة بمزاج الأمة العقلية وكان الفن

الواحد يتغير لذلك باختلاف الأمم التي تستصنعه لزم أن
تختلف الفنون عند الهنود باختلاف شعوبهم رغم الوحدة
الدينية . والواقع كذلك كما تدل عليه آثار كل ناحية . والتباين
شديد جداً بين تلك الفنون . حتى أننا لم نجد بداً من ترتيبها
بحسب الأقاليم أعني بحسب الشعوب لا بحسب المعتقدات
السائدة في أهلها . لا مشابهة بين آثار الشمال وآثار الجنوب
مع كونها شيدت كلها في عصر واحد بين قوم متحدين في الدين .
والتباين موجود حتى في زمن المسلمين أيام كانت الهند قاطبة
تخضع لحكومة واحدة بلغت النهاية في القوة والسلطان .
ترى الآثار الإسلامية المحضة مختلفة عن بعضها اختلافاً
عظيماً بحسب الأقاليم التي شيدت فيها . فالشبه ضعيف جداً
بين مساجد (أحمد آباد) و (لاهور) و (إكره) و (بجاپور)
وكلها تقام فيها عبادة واحدة . بل أنه أضعف من الشبه بين
آثار (نهضة المعارف) والآثار (الغوطية) بأوروبا

وليس التباين في الهند قاصراً على الآثار بل هو موجود
أيضاً في التماثيل بحسب الأقاليم سواء كان من جهة الشكل
أو من جهة الصنع كما يظهر ذلك في نقوش (سانش) البارزة

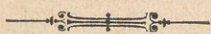
وتماثيلها . وفي تماثيل (برهات) وكلها مصنوعة تقريباً في
زمن واحد . وهو أظهر في مصنوعات ولايتي (أوريسا)
و (يوندلشند) أو في (ميسور) والهند الجنوبية . وهو
ظاهر أيضاً في أقل المصنوعات الفنية وليس من مجهل ذلك .
وأقل خبرة تكفي لتمييز علبة من الخشب المحفور صنع
(ميسور) ومثلها من صنع (غزرات) أو حلية من حلي
(أوريسا) ومثلها من صنع ساحل (بومباي) .

ولا شبهة في أن عمارة الهند دينية قبل كل شيء مثل
غيرها من عمارات الشرق ولكن مهما عظم أثر الدين ولا
سيما في الشرق فأثر الأمة أكبر

ذلك الروح الذي يجري بالأمم الى غاياتها يجري
بالديانات أيضاً الى مصائرهما كما يؤثر في النظمات وفي الفنون .
وهو أمامنا في كل عنصر من عناصر المدنية يتناوله بحسنا .
وهو القوة التي لا قوة فوقها . أثره قوة على قدر ألوف الأجيال
التي كوَّنته . انه خلاصة أفكار تلك الأجيال

البنائات

تاريخ الأمم باعتبارها مشتقاً من أخلاقها



الفصل الأول

كيف تصدر النظمات عن روح الأمة

تاريخ كل أمة مشتق على الدوام من مزاجها العقلي — أمثلة مختلفة —
بيان أن نظمات فرنسا السياسية منتزعة من روح الشعب — في أن حقيقتها
ثابتة وإن تغيرت في الظاهر — في أن جميع أحزابنا السياسية ترمى إلى غرض
واحد — صبغاتها وأسمائها — في أن مذهبهم هو حصر السلطان وجمعه وقتل
الحركة الذاتية في مصلحة الحكومة — في أن الثورة الفرنسية إنما قامت
بتنفيذ خطة الحكومة الملوكية — في أن نظمات الأمم منتزعة على الدوام من
خلقها الملى

إنما التاريخ من الجهة العمومية عبارة عن شرح مجموع
ما ولده روح الأمم فهو مشتق من ذلك الروح كما أن أعضاء

النفس في الأسماك متولدة من حياتها في الماء . ومن جهل مزاج الأمة العقلى كان تاريخها في نظره مجموع حوادث مضطربة ناموسها الاتفاق . ومن وقف على ذلك الروح تجلى له أن حياة الأمة نتيجة طبيعية لازمة خلقها النفس . ومهما اختلفت مظاهر حياة الأمم تجد أن روح الشعوب هي التي تنسج برد مصيرها

أجلى مظاهر روح الأمة في نظاماتها السياسية . ومن السهل تقرير ذلك ببعض الأمثلة

هذه فرنسا وهي إحدى الأمم التي حصلت فيها الانقلابات الكلية . والتي يظهر أن نظاماتها السياسية تغيرت تغيراً تاماً في بضع سنين . والأحزاب السياسية فيها على أشد ما يكون من الخلف والتباين . إذا أمعنا النظر في تلك الأفكار المتناقضة في ظاهرها ودققنا البحث في تلك الأحزاب التي لا تهدأ الحرب بينها رأينا للجميع حقيقة واحدة تمثل روح الشعب الفرنسي تماثلاً تاماً . فالمتشددون والمتطرفون والملوكيون والاشتراكيون وبالجملة جميع أهل المذاهب المختلفة يجرون تحت أعلام مختلفة نحو غاية واحدة هي فناء الفرد في

الدولة . كلهم مهتم بتحقيق حصر السلطان حصراً قيصرياً حتى
يكون قياد كل شيء بيد الحكومة . وحتى تنظم هي كل شيء
وتضم إليها كل شيء . وتقن حياة الأفراد في أدق الجزئيات .
وتغنيهم مؤنة أعمال الفكر وان قليلاً . واستخدام المهمة وان
يسيراً . وسيان سمي القابض على الزمام ملكاً أو أمبراطوراً
أو رئيساً أو غير ذلك . فغايتها التي ترمي إليها واحدة . وتلك
الغاية هي ممثلة مشاعر روح الأمة ^(١) . والأمة لا تقبل غاية
أخرى

فمن جهة تدفعنا حركة أعصابنا وسهولة ميلنا عما استقر
حولنا وتصورنا في أن حالنا يحسن لو أن لنا حكومة غير التي
تسيرنا الى تغيير نظامتنا في كل حين . ومن جهة ثانية نسمع
صوت الأموات يقودنا ويقضي علينا أن لا نبدل إلا الألفاظ
والظواهر . حتى لقد بلغت قوة تأثير روح الشعب اللاتينية
فينا درجة لا نشعر معها ببطلان الخيال الذي نحن فيه
لا مشابهة في ظاهر الحال بين نظامنا القديم ونظامنا

(١) قال أحد أصحاب النظر الثاقب موسيو (دييون وايت) « يمتاز روح
الأمة الفرنسية بأنه ليس من خلقها أن تنجح في بعض الأعمال الضرورية أو
الكمالية المتعلقة بالحضارة من دون أن تحمها حكومتها عليه وتساعد عليها »

بعد الثورة العظمى . والواقع أنها إنما سارت في طريق الملوكية من حيث لا شعور . فأتمت حصر السلطة الذي كانوا يعالجونه من بضع قرون . ولو خرج لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من قبرهما وشاهدا ما يجري الآن في فرنسا مما صنعت الثورة لوجها للوم طبعاً الى ما استعمل من القسوة للوصول اليه . ولكنهما يريانه مطابقاً لتقاليدهما كل المطابقة . ولاعترفا بأنهما لو عهدا الى أحد وزرائهما بتنفيذ تلك الخطة لما كان أسعد حظاً في النجاح . ولقلا ان أبعد الحكومات الفرنسية عن الثورة هي حكومة الثورة الفرنسية . ولتحققاً أنه منذ قرن تعاقبت الحكومات المختلفة الأوضاع ولم تحاول واحدة منها تغيير النظام الأول . ذلك لأنه ثمرة التطور المطابق للناموس الطبيعي واستمرار في التقاليد الملوكية الخاضعة لروح الأمة . نعم كان لا مناص لهذين الطيفين المجيدين من توجيه بعض النقد ومن ملاحظة أن استبدال طائفة الحكام الشرفاء بطائفة من المستخدمين أوجد في الحكومة ادارة لا شخصية هي أشد خطراً من سابقتها لأنها هي العنصر الوحيد الذي لا تناله التقلبات

السياسية ولها ماض وسوابق وفيها تضامن طبيعي . أخص صفاتها فقدان التبعة . واستمرارها يجعلها في النهاية صاحبة الكلمة العليا دون سواها . ولعلهما ما كانا يشددان اللوم على هذا الاعتبارهما أن اهتمام الأمم اللاتينية بالحرية أقل بكثير من اهتمامها بالمساواة . فهي تحتل جميع طرق الاستبداد على شرط أن لا تكون صادرة عن فرد واحد . وقد لا يخفى عليهما ما ترتب من زياده القوة الاستبدادية على كثرة اللوائح وتعدد الضوابط التي تضيق الفرد في جميع حركاته . وأنه اذا تم للحكومة ضم كل شيء الى ذاتها وفرغت من التقنين في جميع المرافق . وجردت الأفراد من كل حركة ذاتية تكون الاشتراكية قد ألقت مراسيها عندنا بلا عناء وبلا حاجة الى ثورة أخرى . ولكنهما كانا يريان أيضاً بنور المملوكية أو بنور النظر الصائب الذي يعلمنا أن النتائج تزداد بنسبة المعادلة الحسابية باستمرار فعل المسببات عينها أن الاشتراكية عبارة عن أرقى درجة في سلم المملوكية . وأن الثورة انما عجلت بالوصول الى تلك الذروة العليا هكذا تظهر في نظمات الأمة تلك الأحوال العرضية

أتينا عليها في أول الكتاب وهذه النواميس الثابتة التي نحاول تقريرها . والأولى تخلق الأسماء وتوجد الظواهر .

والثانية هي نبت الخلق الملى وهي التي تقدر مصير الأمم

وفي مقابل المثال السابق نجد مثال شعب آخر أعنى به الأمة الانكليزية لأن مزاجها النفسى مباين لمزاج أمتنا .

وبهذا وحده بعدت الشقة بين النظامات في الأمتين بعداً كبيراً لا تختلف حقيقة الحكومة في الأمة الانكليزية سواء

كان المستوى على عرشها ملكاً كما في بريطانيا أو رئيساً كما في الولايات المتحدة . ففيهما ينكمش أثر الدولة الى أقل حد

ممكناً . ويعظم أثر الفرد الى أقصى غاية ممكنة . والأفراد هم الذين يقومون بالأعمال العامة الكبرى كالمرافىء والترع والسكك

الحديدية ودور التربية وهكذا دون الحكومة . وهذا على الضد مما يجرى عند الأمم اللاتينية

وأجلى مظاهر تفوق الحركة الذاتية يشاهد في أمريكا

لأن تلك الحركة ضعفت كثيراً في انكلترا منذ خمس وعشرين

سنة حيث تغار عليها الحكومة شيئاً فشيئاً . وليس في

استطاعة ثورة ولا قانون نظامى ولا مستبد قاهر أن يحصل

للأمة ذلك الخلق الذي تستمد منه نظاماتها ولا أن ينتزعه منها ان كان لها من قبل . وقد قيل مراراً وأُعيد تكراراً أن لكل أمة الحكومة التي هي حقها . وما كان من الجائز أن يتصور العقل غير هذا

وسنبين قريباً أنه ليس في استطاعة الأمة أن تهرب من نتائج مزاجها العقلي . وإذا اتفق لها ذلك فليوم أو بعض يوم . كما يخيّل أن الرمال حملتها الرياح تخالف ناموس الجذب المغناطيسى . ومن الوهم الاعتقاد بأن للحكومات والنظمات أثراً في مصير الأمم . بل أن مصيرها كائن فيها هي لا في الأحوال الخارجة عنها وكل الذي يجوز تكليف الحكومة به أن تمثل مشاعر وأفكار الأمة التي ألقت مقاليدها اليها . وكل حكومة هي صورة صحيحة لأمتها بحكم وجودها . وما من حكومة ولا نظام يمكن الحكم بصلاحيته مطلقاً أو بفساده كذلك . فمن المظنون ان حكومة ملك (الداهومي) كانت حكومة طيبة جداً بالنسبة للأمة التي خضعت لسيادته . وأن أرقى نظام أوروبى ربما كان غير لائق بتلك البلاد . ذلك ما يجمله لسوء الحظ رجال الحكومات الذين يتصورون أن

الحكومة بضاعة يمكن تصديرها للأمم الأخرى . وأن من
الجانز حكم المستعمرات على مقتضى نظمات العاصمة . ولا
فرق بينهم في هذا وبين من يحاول اقناع السمك بإمكان
البقاء في الهواء بحجة أن التنفس الهوائى ناموس جميع
الحيوانات الراقية

ولاختلاف الأمم في المزاج العقلى يتعذر بقاؤها كلها
تحت سلطان نظام واحد زمنياً طويلاً . وما خضع الانجليزى
والارلندى والسلافى والمجرى والعربى والفرنساوى لقانون
واحد الا بتكبد المشقات واحتمال ثورات تتجدد من حين الى
حين . لذلك كان مقضياً على الدول العظيمة الممتدة السلطان
على أمم مختلفة بسرعة الزوال . واذا وجد منها من طالت
حياتها كدولة (المغول) ثم الانجليز فى الهند فذلك أولاً لشدة
التنازع بين شعوب تلك البلاد الناشئ من تعددها فلا تفكر
فى الاتحاد ضد الأجنبي . وثانياً لما للسادة الغرباء من النظر
الثاقب والبصر السياسى الذى جعلهم يحترمون عادات الأمم
الخاضعة لحكمهم ويتركونهم يعيشون فى ظل شرائعهم
مادة البحث فى نتائج مزاج الأمم العقلى كبيرة لو

استقصيناها لكان لنا من ذلك كتب عدة . ولتبدل التاريخ
كله من بدايته وبرز في ثوب لم يعرفه الناس حتى الآن .
وعندى أنه كان يجب اتخاذ درس هذه المادة قاعدة في
السياسة والتربية . فقد يكون ذلك عاصماً من خطأ كثير
وما نعلم من تعدد الانقلابات لو تيسر للأمم أن تهرب من
المقدور لها بمقتضى روحها الملى . ولم يخفت على الدوام صوت
العقل أمام ذلك الصوت القاهر . صوت من في القبور

الفصل الثاني

تطبيق النظريات السابقة على تطور الولايات المتحدة
بأمريكا والجمهوريات الاسبانية الأمريكية

الخلق الانجليزى — كيف تكون الروح الأمريكى — صعوبة التحول
الناشئ عن أحوال المعيشة — تحتم فناء العناصر المنحلة — الزوج والصينيون
— السبب فى رقى الولايات المتحدة وانحطاط الجمهوريات الاسبانية الأمريكية
بالرغم من اتحاد نظمات الجهتين — فى أن الفوضى التى وقعت فيها الجمهوريات
الاسبانية الأمريكية نتيجة لازمة لانحطاط الشعب

تبين من الملاحظات الموجزة التى تقدمت أن نظمات
الأمة مستمدة من روحها وأنه اذا سهل عليها تغيير صورتها
فهى لا تقدر على تغير حقيقتها . والآن نريد أن نبين بأمثلة
جلية مقدار تسلط هذا الروح على مصير الأمة . وأن شأن
النظمات فى ذلك شأن لا يذكر^(١)

(١) ترك الاجتماعى الكبير (هربرت سبنسر) فى مؤلفاته الكبيرة
الكلام على تأثير الخلق فى مصير الامم وجرت نظرياته الجميلة بادية الامر الى

وانى أرجع فى هذه الأمثلة الى بلد يعيش فيه جنباً
لجنب فى أحوال لا تكاد تختلف عن بعضها من حيث البيئة
شعبان أورويان متحضران ذكيان ولا يختلفان عن بعضهما
الآ بالخلق . وأعنى به البلاد الأمريكية . هذه البلاد مكونة
من قارتين بينهما برزخ . ومساحة احدهما تقرب من مساحة
الأخرى . والأرض متشابهة فى كليهما . وقد فتحت
احدهما واستوطنتها أمة انجليزية . وأقامت فى الثانية أمة
اسبانية . والأمتان تعيشان تحت نظام جمهورى متشابه .
لأن جمهوريات الجنوب نقلت اليها نظمات الولايات المتحدة .
وليس هناك ما تستعين به على ادراك سبب التباين بين حال
الأمتين إلا الاختلاف الجنى . فلننظر أثر ذلك
ونبدأ بذكر مجمل من صفات الشعب الانكليزى

حسن التفاؤل . فلما رأى فى شيخوخته أن يعير الخلق التفاته غير حكمه تغييراً
تاماً وبدله برأى كله تطير . ورأيه الاخير ظاهر فى خطاب نشر حديثاً متعلق
ببلاد (تندا) ونقلته مجلة المجلات واليك شيئاً منه « لقد ضعف ايمانى كثيراً
فى السنين الأخيرة بالنظمات الحرة بعد أن كان متيناً . وأرى أننا نتقهقر الى
نظام تقبض علينا فيه يد من حديد ويمثله الاستبداد الاداري الذى تنظمه
الاشتراكية ثم الاستبداد العسكرى الذى سيخلقه اذا لم يعجل به إلينا
الاضطراب الاجتماعى »

السكسونى الذى يسكن الولايات المتحدة . فهو أشد شعوب الأرض على التقريب وحدة وتماثلاً ومن السهل جداً تعريف مزاجه العقلى فى مجموعه

أخص ما يمتاز به هذا المزاج من حيث الخلق قوة ارادة قلما كانت لأمة من الأمم اللهم الا الأمة الرومانية فى الأزمان الخالية . وعزيمة لا تمارى . وهمة عالية . ومقدرة على النفس كاملة . واستقلال يبلغ حد الخروج عن المدنية . ونشاط قدير . ومشاعر دينية شديدة . وأدب ثابت ومعرفة واجب تامة

وأما من جهة الذكاء فلا يسهل بيان صفات مميزة خاصة أعنى عناصر ممتازة يمتنع وجودها فى الأمم المتحضرة الأخرى . وغاية ما يمكن ذكره أن هذا الشعب ذو تصور صحيح يسمح لصاحبه بأدراك الجهة العملية فى المحسوسات . ولا يضل به فى أبحاث وهمية . وبعبارة أخرى ذوق شديد الحس بالواقع وضعيف بالنسبة للنظريات الكلية . ثم شئ من ضيق العقل يمنع من الالتفات الى الجانب الضعيف فى المعتقدات الدينية ويجعل هذه المعتقدات فوق المناظرات . يضاف الى هذه

الصفات العامة أمل قوى في رجل عرف سبيله في الحياة
واعتقد أنه ليس له أن يبدله بأحسن منه . رجل عرف ما عليه
لوطنه وأهله وربه . يبلغ منه الأمل درجة حقرت في عينه ما
هو غريب عنه . والواقع أن احتقار الأجنبي وعاداته فاق في
الانجليز ما كان عند الرومان من ذلك للبرابرة أيام عظمتهم
فهم لا يراعون ناموس الأدب في جانب الأجنبي . ولا تجد
بين ساسة الانجليز واحداً لا يرى جواز استعمال أمور في
جانب أمة أجنبية لو أتاها في بلاده لأنزلت به السخط من كل
ناحية . ولا شبهة في أن ذلك الخلق منحط في نظر الفلسفة
ولكن فائدته كبيرة في رقي الأمة وتقدمها . فهو إحدى قوى
انجلترا . كما أشار اليه القائد الانجليزى (ولسلى) ولقد أصاب
القائلون في رفض الانجليز بناء نفق تحت بحر المانش يسهل
المواصلات على القارة الأوروبية بأن الانجليز يهتمون اهتمام
الصينيين بمنع كل تأثير أجنبي من الدخول الى بلادهم
جميع الصفات المتقدمة موجودة في طبقات الأمة كلها
فما منها الا وله أثر في عناصر المدنية الانجليزية . يظهر ذلك
لكل من زار بلادهم ولو بضعة أيام . يرى الحاجة الى المعيشة

الاستقلالية بادية في مسكن أحقر أجير . فهو مسكن ضيق بالضرورة ولكنه منعزل لا يضايقه قرب الجوار . ويراها في محطات السكك الحديدية حيث يتمشى الناس دائماً ولا يقفون متكئين كقطع الغنم المستسلم خلف حاجز مخفور بالرقباء كأنما هم يسهرون على صون أولئك القوم من الخطر لأنهم لا يجدون من أنفسهم حيلة يتقون بها دهس العربات . يرى عزيمة الشعب بادية في عمل الأجير الشاق كما يراها في عمل التلميذ ترك لشأنه فطفق يتعلم السير في الحياة وحده . وقد صار يعلم أنه ما من أحد يهتم بمصيره فيها إلا نفسه . يراها في عمل الأستاذ يهتم قليلاً بالتعليم ويفرغ جهده في تربية الأخلاق لا اعتبارها عنده أكبر عامل في حركة العالم ^(١) . وإذا ألقى نظرة في الحياة العمومية وجد أن حركة الافراد الآتية لا قوة الحكومة هي التي تقوم بأغلب الأعمال سواء كان المراد

(١) قررت الملكة فيكتوريا مكافأة سنوية لمدرسة (ولنجتون) وعهدت الى البرنس (ألبيير) بتحديد شروط نياها فقرر أن تهدي لأرفع التلاميذ أخلاقاً لا لأكثرهم علماً وكانت هذه المكافأة تقرر من دون شك في أمة لا تينية للتلميذ الذي يجيد القاء ما حفظه عن الكتب . فتعليمنا كله حتى الراق منه منحصر في تحفيظ الدروس للتلاميذ وتتأصل فيهم هذه الملكة فيستمترون على القاء ما حفظوا بقية حياتهم

اصلاح مستشفى القرية أو انشاء مرفأ بحري أو سكة حديدية .
فاذا تعمق في النظر تحقق أن هذه الأمة رغم عيوبها التي
راها الأجنبي لأجلها أشد الأمم جفاءً هي الأمة الوحيدة
الحرّة بالمعنى الصحيح . لأنها هي الوحيدة التي عرفت كيف
تحكم نفسها فتمكنّت من أن تحدّد لحكومتها أصغر دائرة
ممكّنة . وإذا تصفّح تاريخها علم أنها أول أمة خلصت من
كل سيطرة سيان في ذلك سلطان الكنيسة وسلطان الملوك .
فمنذ القرن الخامس عشر كان الفقيه (فورستيكو) يعارض
القانون الانجليزي بالقانون الروماني الموروث عن الأمم
اللاتينية وأحد القانونين من عمل الملوك المطلقين ومرماه
تضحية الفرد . والثاني من عمل المجموع وغايته حمايته

أنى نزلت أمة هذى صفاتها تعلو كلمتها بلا مهل وتقيم
صروح دول قادرة . فان كانت الأمة التي نزلت فيها ضعيفة
لا ينتفع بها كما ينبغي مثل أمة (يوروج)^(١) انقرضت وبادت .
وان كانت كثيرة العدد كأمة الهنود ولها مقدرة على العمل

(١) هم هنود أمريكا الشمالية ومعنى هذا الاسم (ذوو البشرة الحمراء)
سموا كذلك لذلكهم أجسامهم بالتراب الأحمر ولونهم الحقيقي أسمر قاتم

المفيد أخضعت الى تابعة قوية . وسخرت الى العمل لفائدة
مواليها الا يسيراً

وأخص البلاد التي تظهر فيها آيات رقي الأمة الانجليزية
المنتزع من مزاجها العقلي هي البلاد الجديدة كالأقطار
الأمريكية . نزحت تلك الأمة الى أقاليم لا زرع فيها ولا
يقطنها الا نفر قليل من المتوحشين . وليس للنازحين ما
يستعينون به الا ما كان من أنفسهم . وكل الناس يعرفون
اليوم ما وصلت اليه . فلم يمض عليها قرن واحد حتى ارتقت
الى مصاف الدول العظمى على وجه المسكونة . وقليل من الأمم
يستطيع الآن مكافئتها . واني أوصي بكتب موسيو (روزيه)
(بورجيه) عن الولايات المتحدة من يريد الوقوف على
مقدار ما ينفقه سكان الجمهورية العظيمة من النشاط والحركة
الذاتية . هنالك بلغت مقدرة الأفراد غايتها في حكم أنفسهم
بأنفسهم . وفي تأليف الشركات لانفاذ أعظم المشروعات .
وتخطيط المدائن . وتأسيس المدارس . وبناء المرافق . ومد
السكك الحديدية وهكذا . وهنالك قلّ تدخل الحكومة
حتى يخيّل للإنسان أن ليس من سلطة عامة . بل هو يحار

في أن يجد لتلك السلطة عملاً في غير أمور الشرطة والسياسة
أصبح من المتعذر على غير متصف بتلك الأخلاق أن
يرقى في البلاد الأمريكية . وهذا هو السبب في أن النازحين
إليها لا يؤثرون في شعبها . ومن لم يكن على تلك الصفات
فحكمه الزوال لا محالة . ولا يقدر على البقاء في ذلك الوسط
الإنجليزي السكسوني . لأنه وسط متشبع بالاستقلال
وملؤه العزيمة والإقدام . الإيطالي يموت فيه جوعاً . والارلندي
والزنجي يعيشان في أحط الخدم

الجمهورية الكبرى هي بلا ريب أرض الحرية . ولكنها
ليس أرض المساواة ولا أرض الإخاء . فما المساواة والإخاء إلا
وهمان لا تينيان لا محل لهما في ناموس الارتقاء . وما اشتد
أثر التناسل في بلد شدته في أمريكا . فهو فيها لا يعرف
للاستثناء باباً . ذلك سرّ بقاء الأمة على مناعتها ونشاطها .
أما الضعفاء ومتوسطي الحال وفاقدى الأهلية فلا محل لهم
في الولايات المتحدة . تراهم لضعفهم معرضين حتماً للزوال
أفراداً وأممًا على السواء . ودليل ذلك عشائر (پوروج) لما
أصبحت عديمة النفع بادت رمياً بالرصاص أو قتلاً بالجوع .

وعما قليل يلحق بهم العملة الصينيون الذين يزاحمون أهل البلاد بعملهم^(١) وقد أصدروا قانوناً باخراجهم منها جملة ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من المال اللازم لاجلائهم . ولا بد من الاستعاضة عنه عاجلاً بالإعدام المنظم . وقد بدأ ذلك في جملة مقاطعات معدنية . وكذلك أصدروا قوانين بمنع مهاجرة الفقراء الى الولايات المتحدة منعاً باتاً . وأما الزوج الذين كانوا السبب في الحرب الأهلية التي قامت بين موالي العبيد وبين الذين ما كان يسمح لهم بملكهم فهم محتملون احتمالاً لأنهم لا يزالون إلا أعمالاً ثانوية يعافها الوطني الأمريكي . نعم هم يتساوون معهم في الحقوق قانوناً ولكنهم فعلاً يعاملون كالعجموات ذات النفع القليل . وسرعان ما يتخلص القوم منهم اذا آنسوا منهم شراً . والأمريكان مجمعون على الاكتفاء في ذلك بالطرق القديمة التي سنها قانون (لنش) فأول ما تقع منهم جريمة يتضايق منها الناس يرمونهم

(١) هناك قانون يبيح للأمة أن تفعل ما تشاء بأسود تراه مجرمين بعد أن يكون قدم للقضاء وحكم عليه بعقوبة هيئة أو برىء أو أنه لم يقدم للحاكم لعدم وجود نص . وعادتهم أنهم يشنقونه أو يضربونه ضرباً مبرحاً وقد بطلت هذه العادة الآن إلا في الأقاليم الغير الآهلة بالسكان في الولايات الغربية والجنوبية الغربية

بالرصاص أو يشنقونهم . وقد ذكر الإحصاء وهو ناقص جداً
أن الذين انفذت فيهم هذه المشيئة يزيدون على الألف مدى
السنين السبع الماضية

نعم هذه هي الناحية السوداء من صورة تلك البلاد غير
أن شدة بهائها قادرة على احتمال هذا السواد . وإذا أردنا أن
نعرف بكلمة واحدة ما بين أوروبا والولايات المتحدة من
التفاوت قلنا ان الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الأمة التي
قامت فيها الحكومة مقام الفرد . والثانية مثال ما يمكن أن
تنتجه همّة الأفراد الذين خلصوا من كل ضغط رسمي . وليس
لهذه الفروق الكلية منشأ الا الأخلاق . ومن المحقق أن
الاشتراكية الأوروبية لا تجد لها مكاناً تنزل به في البلاد
الأمريكية . لأن الاشتراكية آخر دور من أدوار استبداد
الحكومة فلا تعيش الا في الأمم التي شاخت بعد أن
خضعت قروناً طويلة الى نظام أفقدها الأهلية لحكم نفسها
هذا هو الذي أوجده في أحد قسَمي البلاد الأمريكية
شعب تغلبت في مزاجه العقلي صفات الثبات ومضاء العزيمة
وقوة الإرادة . فلننظر الآن حال بلاد متشابهة بين يدي

شعب آخر لا وراء في ذكائه ولكنه مجرد عن الصفات التي
شرحنا آثارها

أمريكا الجنوبية أغنى بلاد الدنيا من جهة حاصلاتها
الطبيعية . وتبلغ مساحتها ضعف مساحة أوروبا . وهي أقل
سكاناً منها عشر مرّات . والأرض هناك لمن يفلح . وهي
معروضة على الجميع . والعنصر السائد اسباني . وهي تنقسم
الى عدة جمهوريات . منها (الأرجنتين) و (البرازيل)
و (شيلي) و (بيرو) وغيرها . وكلها اختارت نظام
الولايات المتحدة . فهي تعيش في حكم قوانين واحدة . ومع
ذلك فجميع هذه الجمهوريات بلا استثناء طعمة للفوضى
الدموية . والسبب الوحيد هو اختلاف العنصر وفقدان
الصفات الأساسية التي رأيناها عند أهل الولايات المتحدة .
وبالرغم من خصوبة أرضها تنتابها الخسائر من كل نوع . ويحفها
الافلاس ويقتلها الاستبداد

من أراد الوقوف على مقدار انحطاط الجمهوريات
الاسبانية الأمريكية فعليه بكتاب موسيو (ت . شيل) فانه
سفر نفيس مجرد واضعه عن الغاية . فيه بيان أن أسباب هذا

الانحطاط هو مزاج الأمة العقلی فقد تجردت عن العزيمة
والارادة والملكة الأدبية . وتجردها من هذه المزية الأخيرة
وصل الى أحط الدرجات المعروفة في أوروبا . ذكر المؤلف
المشار اليه مدينة من أهم مدن تلك البلاد وهي (بوينوس أيريس)
فقال « انها لا تليق بسكنى من فيه حبة من الوجدان الحیّ
وأقلّ ذرة من الأدب » . وقال في جمهورية (الأرجنتين)
وهي أقلها انحطاطاً من هذه هذه الجهة « من نظر الى هذه
الجمهورية في معاملاتها التجارية علاه الخجل من سوء الذم
الظاهر كالشمس في كل مكان »

ما من بلد يستدل فيه على كون النظامات نبت الجنس
مثل تلك البلاد وعلى أنه من المستحيل نقلها من أمة الى
أخرى . والنفس تنوق الى معرفة ما صارت اليه النظامات
الحرّة للولايات المتحدة بانتقالها الى شعب أحطّ منها . قال
موسيو (شيلد) عن الجمهوريات الاسبانية الأمريكية « انها
في قبضة رؤساء لهم فيها من السلطان المطلق ما لقيصر روسيا
بل أشدّ من ذلك لبعدهم عن المراقبة الأوروبية . جميع
الموظفين من صنائعهم . والأهالي ينتخبون البعض كما يشاؤون

ولكن لا عبرة بانتخابهم البتة وليس للجمهورية (الأرجنتين)
من الجمهورية إلا اسمها . والحقيقة أنها حكومة مطلقة في
أيدي أناس اتخذوا السياسة متجراً »

وبلاد البرازيل هي التي كانت نجت من هذا السقوط
والفضل في ذلك للحكومة الملكية التي منعت السلطة من
الوقوع في مخالب الأهواء . ولما كانت تلك الحكومة حرة
بقدر يزيد على ما تقتضيه حالة شعب لا هممة له ولا ارادة
سقطت هي الأخرى وهوت معها الأمة الى الفوضى . وبدد
رجال الحكومة أموال الأمة في بضع سنين ثم زادوا
الضرائب ستين في كل مائة

وليس سقوط الأمم اللاتينية التي استقرت بالبلاد
الأمريكية فاشياً في السياسة وحدها بل ظاهر ايضاً في
عناصر المدنية كلها . ولا شبهة في أن بقاء تلك الجمهوريات
التعيسة متروكة لشأنها ينتهي برجوعها الى الهمجية . فقد
أصبحت التجارة كلها وكذا الصناعة في يد الأجنبي من
الانجليز والأمريكان والألمان . وأصبحت (كالباريزو)
مدينة انجليزية . ولولا الأجانب لما بقي شيء في (شيلي) .

ولولا الأجانب لما بقي لتلك البلاد طلاء المدينة الذي تغتر به
أوروبا حتى الآن . وفي جمهورية الأرجنتين أربعة ملايين
من البيض أصلهم من الاسبانيين . ولا أدري ان كان يوجد
واحد منهم على رأس صناعة ذات أهمية حقيقية بل كل ذلك
في يد الأجنبي

ان في سقوط العصر اللاتيني هذا السقوط المريع لمجرد
كونه متروكاً لشأنه ومقارنته برقى العصر الانجليزى فى بلد
تجاوره مشاراً للحزن والأسى . ولكنها مشاهدة ليس أصدق
منها فى الاستدلال على صدق النواميس النفسية التى شرحناها

لفصل الثالث

في أن تغير روح الأمة يغير من تطورها في الحياة

في أن تأثير العناصر الأجنبية يغير روح الأمة ويبدل حضارتها — مثال الرومان — في أن حضارة الرومان لم تسقط بالغارة الحربية وانما سقطت باغارة البربر السلمية — في أنه لم يجل بخاطر البربر اسقاط الدولة — في أن غارتهم لم تكتسب شكل الفتح — في أن الرؤساء الفرنك الأولين اعتبروا أنفسهم على الدوام موظفين في خدمة الدولة الرومانية — في أنهم احترموا على الدوام خطورة الرومان وما فكروا إلا في البقاء عليها — في أن عدول الرؤساء البربر في بلاد الغول^(١) عن اعتبار الامبراطور الروماني رئيساً عليهم لم يبدأ إلا في القرن السابع — في أن تغير الحضارة الرومانية تغيراً تاماً لم يكن نتيجة هدم أسسه وتخریب أساطينه ولكنه ناشى من أن شعباً جديداً تمثل تلك الحضارة القديمة — غارات العصر الحاضر في الولايات المتحدة — فيما يتهماً بسبب تلك الغارات من المنازعات الداخلية والافتراق الى حكومات مستقلة متنافرة — في غارات الأجانب بفرنسا وتناجها

تبين من الأمثلة المتقدمة أن حضارة الأمة لا ترجع الى نظاماتها بل الى خلقها أعني طبيعة شعبها . وكذلك رأينا عند البحث في تكون الأمم التاريخية أن انحلالها ينجم عن التناسل مع الأجنبي . وأن الأمم التي حفظت نفسها من

(١) هو اسم بلاد فرنسا قديماً

ذلك الانحلال وصانت وحدتها وقوتها هي التي ابتعدت كل
البعد عن الاختلاط بالأجانب كأمة (الآريين) في الهند قديماً
وكالأمة الانجليزية في جميع مستعمراتها حديثاً. وأن وجود
الأجانب وان قلّوا كافٍ لتغيير روح الأمة لأنه يفقدها
القدرة على الدفاع عن خلقها النوعي وعن آثار تاريخها وما صنع
آباؤها الأولون

هذه النتيجة مستخلصة مما قدمناه واذا صحّ أن عناصر
الحضارة عنوان روح الأمة صحّ أن تغير هذه الروح مدعاة
لتغير تلك الحضارة ، ولنا على ذلك أمثلة كثيرة في الماضي
وسيكون الحال كذلك في المستقبل

أهم مثال صحّ في هذا البحث تطور الحضارة الرومانية .
وقد ذهب المؤرخون الى أن هذه المشاهدة كانت في الغالب
نتيجة اغارة البربر . لكن اذا دققنا النظر علمنا أن الذي
أوجب سقوط الدولة الرومانية إنما هي الغارات السلمية لا
الحربية . وأن البربر فضلاً عن كونهم لم يعمدوا الى هدم
الحضارة الرومانية فانهم عملوا على احترامها وأفرغوا جهدهم
في الانطباع عليها وادامتها فحاولوا ضم لغتهم اليهم والقيام على

نظاماتهم وفنونهم . وظلوا يستبقون ما ورثوا من تلك الحضارة حتى في عهد آخر الملوك (المير وفنجيين) . وجميع أعمال الملك شارلمان العظيم مصبوعة بهذه الصبغة

غير أنا نعلم أن مثل هذا العمل مستحيل . لذلك مضى على البربر قرون عديدة حتى تسنى لهم تكوين شعب متحد العنصر نوعاً بواسطة التناسل ووحدة المعيشة . فلما وجد الشعب الجديد كان له بالضرورة فنون جديدة ونظمات كذلك وان شئت فقل حضارة جديدة . نعم لم تخلص هذه الحضارة من تأثير حضارة الرومان إلا أن المجهودات التي بذلت لإحياء هذه الحضارة ذهبت ادراج الرياح : فما أفلحت (النهضة العلمية) في إعادة فنونها ولا الثورة — في إقامة وزن نظاماتها

وعلى ذلك ليس من الواقع أن البربر الذين بدأت غارتهم على المملكة الرومانية منذ القرن الأول للميلاد وانتهى بهم الأمر إلى ابتلاعها لم يقصدوا اماتة حضارتها بل تعمدوا استبقائها . وعلى فرض أنهم لم يقاتلوا الرومانيين وأنهم اقتصروا على الاختلاط بهم شيئاً فشيئاً والرومان يقولون يوماً

عن يوم فان مجرى التاريخ لم يكن ليتغير ولكانت النتيجة ما رأينا أعني أن مجرد اختلاط البربر بالرومان كان كافياً في اماتة الروح الرومانية وان لم ينهدم صرح الدولة . وعلى ذلك يصح القول بأن الحضارة الرومانية لم تنقلب دفعة واحدة بل استمرت تتحوّر على مرّ الأيام لا لسبب غير وقوعها بين يدي شعوب أجنبية . ونظرة بسيطة في تاريخ غارات البربر تؤيد ذلك

دلت أبحاث المنقبين العصريين وأخصها أبحاث (فوستيل دى كولانج) على أن غارات البربر السامية هي التي قوّضت أركان الدولة الرومانية لا الغارات الحربية التي كان الرومان يدفعونها من غير عناء بواسطة البربر المقيمين في خدمة الدولة . لأنه منذ عهد الأمبراطرة الأولين تمكنت عادة استخدام البربر في الجيش الروماني . وكانت هذه العادة تتقوى وتتمو كلما اتسعت ثروة الرومان ومالوا عن الجنديّة . وفي بضع قرون أصبح الجيش ووظائف الحكومة كلها من الأغراب فكان الجنّد مؤلفاً من (الوزغوط) و (البرجونديين) و (الفرنك) وبحكم تكوين الجيش وإدارة الأقاليم من البربر كان

لا بدّ من استقلال الولايات شيئاً فشيئاً . وكذلك كان . غير
أن نفوذ الدولة كان بالغاً حدّاً لم يجزأ معه البربر على أن يقبلوا
لها ظهر المجن حتى الذي كانت له السيادة على نفس روما .
والدليل على ذلك أنه لما استولى أحد رؤساء البربر على روما
سنة ١٤٧٦ وهو (أدواكر) ملك (الهيرول) التابع للدولة
الرومانية أسرع فالتمس من الأمبراطور في القسطنطينية
الاذن له بتولى حكم إيطاليا تحت اسم (پاتريس) ومعناه (سيد)
ولم يخالف هذه السنّة واحد من أولئك الرؤساء بل كانوا
يحكمون الولايات باسم روما . وما فكروا يوماً في أن يتصرفوا
في الأرض أو يمسوا النظامات بتغيير ما . وكان (كلوئيس)
يعتبر نفسه موظفاً رومانياً . وكم كان افتخاره لما نال من
الأمبراطور لقب (قنصل) . فظلّ خلفاؤه من بعده ثلاثين
عاماً يصدعون بقوانين الأمبراطرة ويرون من المفروض
عليهم حمل الناس على احترامها . ودام الحال هكذا الى القرن
السابع حيث اجترأ الرؤساء من البربر في (الغول) على ضرب
السكة وفيها صورهم وكانت لذلك العهد تحمل صورة الامبراطور .
ومن ذلك العهد يصح القول بأن رؤساء البربر لم يعودوا

يعترفون برئاسته . وعليه يكون المؤرخون مخطئين في بدءهم تاريخ فرنسا قبل الواقع بمائتي عام و اضافتهم عشرة ملوك الى عقد ملوكنا

كانت غارات البربر على روما بعيدة عن مشابهة الفتح لأن الأهالي داموا على أرضهم ولغتهم وشرائعهم مما لا يقع في أحوال الفتح الحقيقي كما حصل في انكلترا لما فتحها النورمانديون ومن المظنون أن زوال الدولة الرومانية حصل تدريجاً بحيث لم يشعر به المعاصرون . فكانت الأقاليم متعودة منذ قرن على ولاية يحكمونها باسم الامبراطور . ولم يستخلص أولئك الولاية الحكم لأنفسهم الا متدرجين على مهل كبير . فما بدلوا شيئاً بل استمر الحال القديم تحت امرة جديدة طول عهد (الميروفنجيين) ^(١)

انما التغير الوحيد الذي صار كلياً هو تكوين شعب تاريخي جديد . وظهور حضارة جديدة كأثر لازم لهذا الشعب طبقاً للنواميس التي قررتها

(١) قال موسيو (فوستيل دي كولانج) ان حكومة الميروفنجيين تكاد تكون صورة لحكومة الامبراطورية الرومانية في بلاد (الغول) ولا شيء فيها من حكومة الشرفاء

هذا ناموس متجدد الأثر على الدوام ويخال أنه أثبت
نواميس حياة الأمم وكأنا نشاهد معه في هذه الأيام غارات
سامية شبيهة بالتي بدلت حضارة الرومانيين . قد يخال من
انتشار الحضارة في هذا الزمان أن البربر انقضوا أو أنهم
بعدوا عنا وتوسطوا آسيا وأفريقيا فلم نعد نحسب لهم حساباً .
ومن المحقق أننا لن نخشى غارتهم علينا ولا خوف منهم إلا
من جهة المنافسة الاقتصادية التي قد يحاربونها بها يوماً من
الأيام كما أوضحت ذلك في كتاب آخر . فليس كلامنا فيهم
بل الكلام في أن هناك بربراً نحسبهم بعيدين عنا وهم في
الواقع أقرب منا الآن من بربر الامبراطورية الرومانية لأنهم
مقيمون بين ظهراني الأمم المتحضرة . ذلك أن حضارتنا
أصبحت متشعبة العناصر مشتبكة الأجزاء وأن الفروق بين
الأفراد كثرت وتنوعت كما يبناه من قبل . وأصبح في كل أمة
عدد كبير من العناصر المنحطة التي لا قدرة لها على احتمال
حضارة زاد رقيها عن طاقتهم . وهذا التحليل كل يوم في
ازدياد . وهو يزداد ضخامة شيئاً فشيئاً . وغارته ستكون
القاضية على الأمة التي تبلى به

الآن يركب البربر الجديدون غارات الاغتراب الى الولايات المتحدة بأمريكا وهم الذين يخشى شرهم على حضارة تلك الأمة العظيمة . فلما كانت الهجرة قليلة وكان المهاجرون من الانكليز كان امتصاصهم سهلاً مفيداً . وتلك الهجرة هي التي أقامت عظمة أمريكا . أما اليوم فقد طفح على الولايات المتحدة سيل جارف من العناصر المنحطة وهي لا ترغب في امتصاصهم ولا تقدر على ذلك ان أرادت . دخلها من الغرباء ما يقرب من ستة ملايين بين سنة ١٨٨٠ — ١٨٩٠ كلهم على التقريب من الأجراء الغير الراقين . وهم أجناس شتى . وليس في مدينة (شيكاغو) الآن من الأمريكان الربع من سكانها وعدد هم (١,١٠٠,٠٠٠) نسمة . ففيها (٤٠٠,٠٠٠) ألماني و (٢٢٠,٠٠٠) ارلندي و (٥٠,٠٠٠) بولوني و (٥٥,٠٠٠) تشيك وغير هؤلاء . ولا امتزاج بين هؤلاء الأغراب وبين الأمريكان . وهم لا يهتمون حتى بتعلم لغة وطنهم الجديد . وانما هناك جاليات تعمل أعمالاً ربحها يسير . لذلك هم غير راضين ولذلك هم أعداء أهل البلاد . وقد كادوا يحرقون المدينة مدة اعتصاب عمال السكك الحديدية حتى اضطرت الحكومة الى

أن تعمل فيهم مدفع (المتراليوز) بلا رحمة . ومنهم يخرج دراويش تلك الاشتراكية السمجة التي تهدم العوالى والى قد يسهل قيامها فى أوروبا بسبب ما ألمَّ بها من الضعف ولكنها تنافر طبع الأمريكى منافرة كبرى . وسيكون التنازع الذى تولده هذه المذاهب فى الجمهورية العظيمة تنازع عناصر افرقت فى تطورها

والظاهر بالبداهة أن الغلبة لا تكون حليفة البربر فى الحرب الأهلية التى ستستعر نارها بين أمريكان أمريكا وأمريكان الأجانب فى تلك البلاد . وأن تلك المعركة الهائلة ستنتهى بمقبرة هائلة تعيد ذكرى استئصال (السامبر)^(١) من يد (ماريوس) ولا تختلف عنها إلا فى ضخامتها . وإذا تأخرت الحرب واستمرت الهجرة لا يكون الاستئصال تاماً . وربما صارت الولايات المتحدة الى ما صارت اليه الدولة الرومانية أعنى أنها تفترق الى حكومات مستقلة بعضها عن بعض تنتابها الانشقاقات والحروب كما هو الحال فى أوروبا أو فى أمريكا الإسبانية

(١) أمة من البرابرة أغارت على بلاد الغول قبل الميلاد بمائتى عام فلاقها حاكم اسمه (ماريوس) وحاربها حرباً طعن بها طعناً

وليست أمريكا وحدها هي المهدة بهذه الغارات .
فمن الأمم الأوروبية ما يتوقع لها مثل ذلك أعنى الأمة
الفرنساوية . البلاد غنية . وعدد سكانها لا يزيد . ومن حولها
أمم فقيرة سكانها في ازدياد مستمر وهجرتهم اليها أمر محتوم
ويساعد على ذلك ازدياد مطالب الأجراء فرنساويين الذين
يلجئون قومهم بذلك الى قبول الغرباء في الأعمال الزراعية
والصناعية . وللنازحين النسا منافع ظاهرة . فلا هم مكلفون
بالخدمة في الجندية . ولا ينالهم شئ من الضرائب الشخصية
أو ان ما ينالهم من ذلك يسير جداً لاعتبارهم غير مستقرين
وعملهم أقلّ عناءً وأكبر أجراً منه في بلادهم . وليست ثروتنا
وحدها هي التي تجرهم النسا بل لأن البلاد الأخرى تصدر
كل حين قوانين قاضية بمنع نزوحهم اليها

ومما يزيد في خطر غارة الأجانب أن الذين ينزلون بغير
أمتهم من أحطّ الطبقات . وما تركوا بلادهم الا لتعذر المعيشة
عليهم فيها . ونحن نقبلهم على الرحب عملاً بمبادئ الانسانية
التي جبلنا عليها . ولذلك يزداد عددهم شيئاً فشيئاً . كانوا أقلّ
من (٤٠٠,٠٠٠) منذ أربعين عاماً فبلغوا الآن (١,٢٠٠,٠٠٠)

وصنوفهم تكثر في كل يوم . ولو نظرنا الى عدد التليانيين من
بينهم لقلنا ان مرسيليا مستعمرة تليانية بل ليس للدولة
الايطالية مستعمرة يبلغ عدد سكانها التليان عدد من يقيم
منهم في تلك المدينة . واذا لم تتغير هذه الحال وتقف حركة
الهجرة يصبح سكان فرنسا في زمن قريب ثلثهم من الألمانين
وثلثهم من التليانيين . فماذا يكون من أمر وحدة الأمة بل
من وجودها في مثل هذه الأحوال . ان أكبر مصائب
الحرب أهون عليها من نتائج ذلك وأخف ضرراً^(١) . لقد كان
للأثم الغابرة إلهام صادق في نفورهم من الأجنبي لأنهم كانوا
يعلمون أن قيمة الأمة بالوطنيين من أهلها لا بعدد سكانها
ومن ذلك يتبين لنا أن أس الأسس في جميع المسائل
التاريخية والاجتماعية مشكلة العناصر فدونها كل مشكلة سواها

(١) ليس في قدرة الأمم منع هذه الغارات لأنها مسببة عن مسائل
اقتصادية لاحيلة للناس فيها الا أنه في الامكان اتخاذ بعض الوسائل لاعاقه نموها
كتقرير الخدمة الاجبارية في الجندية بالألايات الاجنبية على كل أجنبي له في
البلد سنتان ولا يبلغ عمره خمساً وعشرين سنة وفرض البديل النقدي على من
زاد سنة عن ذلك والغاء التجنس الغاءً باتاً الا استثناء وربط ضريبة ربع الايراد
أو الأجور على كل أجنبي تجنس بالجنسية الفرنسية أم لم يتجنس وكان مقيماً في
البلاد منذ أقل من خمسين سنة . والغائب الذي يتمكن من التصديق على مثل هذا
القانون يستحق أن يقام له تمثال لتخليد ذكره

الباب الرابع

كيف تتحوّر الصفات النفسية للأمم

الفصل الأول

أثر المبادئ في حياة الأمم

في أن المبادئ التي تدور عليها حضارة الأمة قليلة العدد — في أن تولدها بطيء وكذا زوالها — في أنها لا تؤثر في سير الأمة الا بعد أن تصير من المشاعر — في أنها تكون اذ ذاك جزءاً من الخلق — في أن بقاء المبادئ هو السبب في بقاء الحضارة زمنياً ما — كيف تستقر المبادئ — في أنه لا تأثير للعقول في ذلك — تأثير التوكيد والنفوذ — تأثير أهل الاعتقاد والرسول — تشويه المبادئ بانتشارها بين الجموع — في أن المبدأ متى استقر أحدث لساعته تأثيراً في جميع عناصر المدينة — في أن الفضل في وحدة النظر عند أهل كل زمان وحدة وسط تجعلهم متشابهين في تصوراتهم وأعمالهم راجع الى وحدة المبادئ فيهم — تأثير العادة والرأي السائد — في أن وطأة هذا الأثر لا تخف الا في أوقات المحنة عندما تفقد المبادئ القديمة قوتها ولا يستعاض عنها — في أن زمن الوحدة هو الذي يتيسر فيه البحث في الآراء — في أن المذاهب لا تدوم الا بشرط عدم البحث فيها — في أن الأمم اذا غيرت مبادئها ومذاهبها اضطرت الى تغيير حضارتها

بعد أن بينا أن الأخلاق النفسية للأمم ذات ثبات
مكين وأن تاريخ الأمم راجع إلى هذه الأخلاق قلنا إن العناصر
النفسية قابلة للتغير على مر الأيام وتعاقب الوراثة كالعناصر
الجسمانية سواء بسواء. ونقول الآن إن هذا التغير أهم الأسباب
في تطور المدنية

وأسباب التغيرات النفسية كثيرة. منها الحاجة
والتنافس في العيش. وتأثير البيئات. وتقدم العلوم والصناعة
والتربية والمعتقدات وغير ذلك. وقد نشرنا قبل الآن كتاباً
شرحنا فيه شأن كل واحد من هذه المؤثرات فلاح محلّ هنا
للإسهاب في هذا الموضوع^(١). وإنما نختار البعض من هذه
العوامل لنبين وجه فعلها وهو ما سنقرره في هذا الفصل
وما يليه

يرشدنا النظر في حضارات الأمم التي دوّنت في التاريخ
منذ القدم أن رقيها كلها كان وفقاً لمبادئ قليلة العدد ولو أن
تاريخ الأمم اقتصر على تاريخ هذه المبادئ لما بلغ من الطول

(١) الإنسان والجمعية من حيث الأصل والتاريخ جزء (٢) مبحث تطور
الجمعيات البشرية

ما قد بلغ . فان الحضارة التي يتولد عنها مدى قرن بأكماله
مبدأ واحد أو مبدآن أساسيان في عالم الفنون أو العلوم أو
الآداب أو الفلسفة تعدّ من أبهى الحضارات وأرقاها

ولا يظهر للمبادئ تأثير حقيقى في روح الأمة الا اذا
اختمرت على مهل ونزلت من أعالي النظر العقلى الى عالم
المشاعر المستقرّ اللاتنبهى حيث تتكوّن دواعى الحركة
الإنسانية . اذ ذاك تصير المبادئ جزءاً من الخلق ويكون
لها تأثير في الحياة . لأن الخلق يحتاج في تركيبه الى تراكم
طبقات من الأفكار اللاتنبهية

اذا اختمرت المبادئ على هذا النحو أصبح أثرها
شديداً جداً لأنها تفلت حينئذٍ من تحكم العقل فيها . ألا
ترى أن ذا اليقين الذى استولى على قلبه مبدأ دينى أو غير
دينى بعيد عن التأثير بالمعقول مهما كان ذكياً . وكل الذى
يكون من مقدوره — والغالب أنه لا يحاول ذلك — هو
تلمس الحيل العقلية والقلب والإبدال توصلاً الى ضم الرأى
الذى يعارض به الى الرأى الذى تمكن منه

واذا ثبت أن المبادئ لا تؤثر في الحياة الا اذا انتقلت

من عالم الشعور الى عالم اللاشعور تبين السبب في بقاء
تغيرها . ووضحت العلة في أن الذي تبني عليه الحضارة منها
قليل . وأنه لا بدّ من زمن طويل لتطورها . وعلينا أن نسر
بأن هذا هو الواقع والّا لما كان للحضارة أن تحي طويلاً .
كذلك من حسن الحظّ قابلية المبادئ الجديدة للاستقرار
اذ لو دامت المبادئ القديمة مدى الدهر لاستحال أن ترقى
الحضارة أبداً . وبطء تطور المعقولات هو السبب في أنه
يلزم لاستظهار المبادئ الجديدة عدة أجيال كما أنها لا تزول
الّا بعد أجيال عدّة . وأرقى الأمم حضارة هي التي تيسر لها
أن تمسك بمبادئها الأساسية على بعد واحد من التغير والجمود .
اما الأمم التي لم يكن لها هذا الحظّ فبادت والتاريخ
يذكر بقاياها

وعلى ذلك يتجلى لنا بالسهولة أن كثرة المبادئ وقرب
عهد ظهورها ليس هو الذي يستوقف النظر في تاريخ الأمة
بل على الضدّ قتلها المتناهية وبطء تحولها وشدة تأثيرها .
فالحضارة بنت بعض المبادئ الأساسية تبقى ببقائها وتتغير
بتغيرها . قامت حياة العصور الوسطى على مبدئين المبدأ

الديني ومبدأ حكم الأشراف . وإلى هذين المبدأين ترجع فنون تلك الأزمان وأدابها ونظرها في الحياة على الإطلاق . ثم طرأ على هذين المبدأين بعض التغيير زمن (النهضة) . ومنذ تجدد خيال العصر الاغريقي الروماني وتمكن من عقل أوروبا بدأ التطور في تصور الحياة وفي الفنون والفلسفة وصناعة الأدب . ثم تداعت قوة السنة السالفة وصارت الحقائق العقلية تحل محل الحقائق النقلية . فتطورت الحضارة تطوراً جديداً والظاهر أن المبادئ الدينية فقدت الآن القسم الأكبر من سلطانها فوهنت قوائمها وأصبحت جميع النظم الاجتماعية التي كانت مرتكزة عليها مهددة في وجودها يجب أن نكثر الأمثلة للأتيان على تاريخ تكوين الأفكار وتمكنها واضمحلالها وتغيرها وزوالها . ولو أتيح لنا الدخول في الجزئيات لبيّننا أن كل عنصر من عناصر المدنية كالفلسفة والدين والفنون والأدب وهكذا يرجع الى عدد يسير من المبادئ الأساسية البطيئة النمو . ولا تشذ العلوم ذاتها عن هذه القاعدة . فعلم الطبيعة قائم الآن على مبدأ عدم انعدام القوة . وعلم الطب قائم على مبدأ أصغر ما خلق .

وتاريخ هذه المبادئ يدل على أنها لا تستقرّ إلا بالصعوبة
روبدأً رويداً مع كونها من أبحاث العقول المستنيرة . ومع
أن كل شيء يسير على عجل في هذا العصر وأنه لا تأثير
لشبهوات ولا للمنافع في البحاثين وأهل النظر . يحتاج المبدأ
العلمي الأساسي الواحد الى خمسة وعشرين عاماً حتى تجلي
غوامضه ويأخذ قراره . ولم يمض زمن أقل من هذا في
تقرير أوضح المبادئ وأقلها عرضة للخلاف كبداً الدورة
الدموية

وجميع المبادئ متحدة في كيفية التكوين والظهور
لا فرق في ذلك بين المبدأ العلمي والمبدأ الفلسفي أو الفني أو
الأدبي أو غيره . يعتنق المبدأ في أول الأمر عدد قليل من
المبشرين به ثم الذين يعظم نفوذهم بما هم عليه من قوة اليقين أو
بما لهم من المكانة الرفيعة . وينتشر أثرهم بالإلقاء أكثر مما ينشر
بالتقرير لأن عناصر الاقناع الحقيقية ليست في قوة البيان .
وانما يدين المخاطب لرأى المتكلم لنفوذ الثاني أو لكونه يوجه
الخطاب الى ما يشتهي الأول . ولكنه لا يؤثر فيه أقل تأثير
اذا وجه خطابه للعقل وحده . فلا تتأثر الجماعات خاصة

بالتقريرات ولكنها تتأثر بالتوكيدات . وقوة التوكيد تابعة
لنفوذ مقدمها

ومتى نجح المبشرون في اقناع من حولهم كان لهم منهم
مبشرون آخرون . اذ ذاك يدخل المبدأ الجديد في باب
البحث والمناظرة وتكون المعارضة فيه عامة في مبدأ الأمر
لأنه يصطدم بالضرورة مع أمور كثيرة ثابتة من قبل
فيحتاج ذلك القائمين بالدعوة اليه لأن المعارضة تزيدهم اقتناعاً
بتفوقهم على من عداهم وتكبر عزيمةهم في الدفاع عن مبادئهم
لا لمجرد كونه حقاً اذ الغالب أنهم لا يعرفون مبلغ ما فيه من
الصواب . بل لأنهم اختاروه وأعلنوه . هنالك يشتد التجاذب
فيه . ومعنى ذلك في باطن الأمر أن الدعاة يقبلون المبدأ
على علاته والآخرون يرفضونه كذلك . ويكثر النفي والتوكيد
بين المتجاذبين وتقل البراهين لأن أسباب قبول مبدأ أو
رفضه عند أغلب العقول راجعة الى الشعور وهو لا يتأثر
بالبرهان الا قليلاً

وبينما الجدل يزداد احتداماً ينمو المبدأ الهويناء وتميل اليه
الناطقة لعله أنه غير متفق عليه لأن الشباب ولوع بالاستقلال

وأخص ميوله معارضة المبادئ التي درج القوم عليها . وهكذا يتدرج المبدأ في النمو ولا يلبث أن يستغني بذاته عن النصراء فيأخذ في الانتشار بمجرد عدوى التقليد وهي ملكة شائعة بين الناس جميعاً بدرجة عالية كما هي في آبائهم من القردة بشهادة العلم الحديث

متى دخل المبدأ الجديد في دور الانتشار بعامل العدوى فقد دخل في دور النجاح . وسرعان ما يقبله الرأي فيكون له من ذلك قوة دقيقة نافذة ترسله الى العقول شيئاً فشيئاً ، وتبنى له فيها بيئة خاصة وتوجد له ملكة يسكنها . ويصير كأنه العثير دق فأنساب في جميع التصورات وتخل كل ما يصنع في عصره الى أن يصير هو وأثاره جزءاً من المورثات العادية التي يخضع لحكمها بالتربية وبذلك يتم له الفوز ويلتحق بالمشاعر فتكون له درعاً يقيه دهرًا طويلاً

ومن المبادئ التي يقوم عليها بناء الحضارة ما تبقى مزيته للطبقات الراقية كالتي تقوم بها الفنون أو الفلسفة . ومنها ما ينزل حتى يبلغ أسفل الطبقات كالدين والسياسة على الأخص ولكنها لا تهبط الى هذا الحد الا مشوهة جداً

واذا بلغت عظم تأثيرها في النفوس الساذجة التي لا قبل لها على
البحث فيها . هنالك يكون المبدأ علماً على أمر لا سبيل الى
مقاومته . وتتدفق آثاره بعنف كأنها السيل ضعفت السدود
عن رده . ومن السهل أن يجد الانسان في كل أمة مائة ألف
رجل يقدمون أنفسهم ضحية لمبدأ تمكن من نفوسهم .
حينئذ تظهر الحوادث الجسام التي تغير وجه التاريخ . ولا
يقدر على القيام بها إلا الجماعات فما الأدباء ولا أهل الفنون
ولا الفلاسفة هم الذين رفعوا راية الأديان التي دانت لحكمها
الدنيا وشادوا الممالك التي امتد سلطانها من وجه الكرة الى
وجهها الثاني وأحدثوا الثورات الدينية والسياسية التي قلبت
كيان أوروبا . بل الذين فعلوا ذلك هم الجهلاء الذين اشتد
تمكن المبدأ في نفوسهم فهانت عليهم في سبيل نصرته . بهذه
العدة الضئيلة نظرياً القوية فعلاً فتح رحل صحارى بلاد
العرب قسماً من الدنيا الاغريقية الرومانية وشادوا دولة من
أضخم الدول التي ورد ذكرها في التاريخ وبمثل هذه العدة
الأدبية أعنى سلطان المبدأ على النفوس وقف جند (العهد)
البواسل في وجه أوروبا بأجمعها

للاعتقاد قوة لا يغلها إلا قوة اعتقاد مثلها . فليس
الإيمان عدو إلا الإيمان . والنصر حليفه متى كانت القوة المادية
التي تعترضه خادمة لشعور ضعيف ومعتقدات توليها الوهن .
لكن اذا اصطدم بإيمان يماثله في قوته أصبح الحرب عواناً
وصار النصر منوطاً بالأحوال الثانوية التي تكتنف الغالب
منهما وأهمها ما كان راجعاً الى قوة الخلق وتعود الانقياد
وحسن النظام . واذا تأملنا تاريخ العرب أيام فتوحاتهم الأولى
— وأول الفتوحات أصعبها في العادة وأهمها — رأينا أنهم
وجدوا أمامهم خصوماً ضعفت أخلاقهم الأدبية وان كان نظام
جنديتهم محكماً . تقدّمت جيوشهم أولاً الى البلاد السورية
فلم يجدوا فيها إلا جيشاً يزنطياً مؤلفاً من الأجراء الذين
ليس لهم ميل الى تضحية أنفسهم في سبيل غرض ما . وكانت
شدة إيمان العرب تزيد قوتهم العددية عشر أمثالها فلم يعانوا في
تمزيق شمل تلك الجيوش التي لم يكن لها خيال تقاتل من أجله
وكذلك استطاع نفر قليل من الاغريق تمكن منهم حب
المدنية من تشتيت شمل جيوش (اكرسيس) العظيمة .
وكانوا يعجزون وتتغير نتيجة الحرب لو أنهم اشتبكوا قبل ذلك

يضع قرون مع الجيش الروماني . فمن الواضح أنه اذا التقت
قوتان أدبيتان متساويتان كان الفوز لأحكما نظاماً . لذلك
غلبت جيوش أهل (العهد) الفرنسية جنود (القندان)
لتساوي الفريقين في قوة الاعتقاد وتفوق الأولين في
حسن النظام

ومن هنا يتبين أن النصر على الدوام حليف المؤمنين .
لا فرق في ذلك بين السياسة والدين . واذا ظهر الآن أن
المستقبل للاشتركيين رغم فساد مذهبهم فساداً مريعاً فذلك
لأنه ليس من صح اعتقاده في هذا الزمان غيرهم . أما الطوائف
التي بيدها زمام الأمم في عصرنا فانها فقدت اليقين في كل
شيء حتى في مقدرتها على الدفاع عن نفسها من سيول البربر
التي تكتنفها من كل جانب

متى قطع المبدأ أدوار التعثر والتحوُّر والتغير والجدل
والانتشار واستقرت صورته الأخيرة ودخل في روح الجموع
صار عقيدة أعني حقيقة مطلقة لا يتطرق اليها الشك ولا
جدال فيها . وانضمَّ بذلك الى المعتقدات العامة التي تقوم بها
حياة الأمة . وعمومه يجعله ذا شأن ممتاز من حيث التأثير في

النفوس . أنك لتجد أزمان التاريخ العظمى كعصر (اغسطس)
وعصر (لويس الرابع عشر) هي التي خلصت فيها المبادئ من
أدوار تكوينها واستقرت بعد أن بطلت المناظرة عليها وتمت
لها السيادة على الأفكار . هنالك تصير المبادئ منارات تصبغ
بالوانها الضوئية كل ما أشرقت عليها

متى انتصر مبدأ جديد ظهر أثره في عناصر المدنية
كبيرها وحقيقتها . ولكنه لا يحدث أثره كله الا اذا دخل
في روح الجموع . فهو ينزل من العقول السامية التي ظهر فيها
الى الطبقة التي تليها ثم الى التي بعدها متحوّراً متغيراً حتى
يكتسب حلة تحمله من نفوس الجموع محلاً مقبولاً . وهناك يتم له
الفوز . واذ ذاك يصاغ في كلمات وجيزة . وربما صيغ بكلمة
واحدة تثير في الخيال صوراً قوية أخاذة أو مريعة لكن مؤثرة
على كل حال . مثل ذلك الجنة والنار في القرون الوسطى .
كانا لفظين قصيرين وكان لهما قوة سحرية تفعل في كل شيء
وتفسر للنفوس الساذجة كل شيء . ولكلمة (اشترائية) في
مخيلة العملة في هذا العصر صورة ساحرة جامعة ذات قوة
تأخذ بمجامع النفس وهي تثير صوراً مختلفة بحسب الجموع

التي تنتهي اليها وكلها مؤثرة جداً رغم سذاجتها
تمثل كلمة (اشتراكية) في ذهن النظرى الفرنساوى
صورة جنة تساوى الناس فيها فتمتعوا بالسعادة الكاملة في
ظل الحكومة. وتمثل للعامل الألماني حانة طبق دخانها وطقق
رجال الحكومة يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخنزير
والكرب المملح ودناناً من الجمعة . ومن المعلوم أن كلا
الرجلين حالم المساواة وحالم الكرب لم يلتفت أبداً الى معرفة
مقدار المقسوم ولا الى عدد المقتسمين . ذلك لأن أخص
صفات المبدأ اذا ثبت أنه يأخذ حيزه بصورة مطلقة لا يؤثر
فيها النظر ولا يضعفها الاعتراض

اذا تم استقرار المبدأ رويداً رويداً حتى صار عقيدة
كان فوزه طويل الأمد وحبط كل دليل يقام لزعزعته . نعم
مصيره أن يناله ما نال المبدأ الذى حل هو محله فيهرم ويتداعى
ولكنه لا يبلغ درجة البلى إلا بعد أن يقطع في تقهقره أدواراً
من التغير والمسخ . وذلك لا يتم إلا في عدة أجيال . ويكون
قبل موته قد عاش دهوراً منضمّاً الى المبادئ القديمة الموروثة
التي يعبر عنها بالأوهام ويحترمها الناس رغم ذلك فللمبدأ القديم

سلطان على النفوس يبقى وان جرد اسمه من معناه وصار صوتاً
لا مردّد له فى القلوب

وهكذا يدوم كل ما تقادم عهده من تراث الآراء
والاتفاقات أى المألوفات التى يكاد المرء يعبدها احتراماً . وهى
لا تحتل النقد لحظة واحدة لو أنا هممنا بالبحث فيها . ولكن
القليل من الناس يجرأ على البحث فى أفكار نفسه كما أن قليلاً
من الأفكار يبقى اذا تناوله أقل بحث سطحى

الأولى أن لا يقدم المرء على هذا البحث الخفيف . ومن
حسن الحظ أنه بعيد عنه . لأن النقد ملكة راقية نادرة
جداً . والتقليد ملكة شائعة جداً . ولذلك نرى جمهور الناس
يقبلون المبادئ كما تأتئهم على علائها بمحض شيوخها أو من
طريق التربية . ومن هنا اشترك السواد الأعظم من كل أمة
وكل زمان فى حد وسط من التصورات والمعقولات فأشبهه
بعضهم بعضاً شبيهاً قوياً حتى أن الناظر الى فنونهم وآدابهم
وفلسفتهم يعرف منها الزمن الذى عاشوا فيه وان بعد دهر
مديد . وعلة ذلك التشابه القوى ما تناقله الخلف عن السلف
بالوراثة والتربية والبيئة والعدوى والآراء . نعم ليس الخلف

صورة تامة للسلف . إلا أن الذي اتحدا فيه هو كيفية تصوُّر
المعقولات والمحسوسات وذلك يؤدي بالضرورة الى نتائج
متشابهات

ولنا أن نسرّ من هذا . لأن روح الأمة انما يتكوّن
من مجموع تلك التقاليد والمشاعر والمبادئ والمعتقدات وكيفية
تصوُّر المعقولات . وقد علمنا أن قوة هذا الروح من قوة
ذلك المجموع وهو الذي تدوم بدوامه الأمم . فاذا ما اعتراه
الانحلال تقوض بنيانها فهو قوتها الحقيقية وهو سيدها
الحقيقي . كثيراً ما مثلوا ملوك البلاد الآسيوية مستبدين
مبادئهم أهواءهم . على أن تلك الأهواء محصورة في دائرة
لا تخرج عنها لأنك لا ترى قوة المجموع التي أشرنا اليها أشدّ
منها في بلاد الشرق . فالتقاليد الدينية التي اهتزت أركانها
عندنا لا تزال على متانتها الأولى عندهم . وأكبر المستبدين
عتواً لا يصادم عندهم هذين السيدين الرأي والسنة . لأنه
يعلم حق العلم أنهما أشدّ بأساً منه وأعظم سلطاناً
اليوم يوجد الرجل المتحضر في عصر من أشدّ أدوار
التاريخ محنة . دور لا تزال المناظرة دائرة فيه على المعتقدات .

لأن المبادئ القديمة التي تشتق منها الحضارة فقدت نفوذها
ولما تستقرّ المبادئ الجديدة . اليوم لا يدري الانسان مقدار
أخذ الرأي والعادة من النفوس ولا الذي كان يلقاه المبدع
من وراء تهجمه على هاتين القوتين . ولكنه يعرف ذلك اذا
رجع الى تاريخ الحضارات القديمة أو الى ما كان منذ قرنين
أو ثلاثة

يروى لنا بعض الجهلاء من القصصين أن الاغريق
كانوا أحراراً وما كانوا إلا عبيداً للعادة والاعتقاد . كان يحيط
بالواحد منهم دائرة من المعتقدات يقدها . وما كان يخطر
لأحد أن يجادل فيما جرى عليه قومه . بل كان لذلك
خاضعاً مستسلماً . وما عرفت الدنيا الاغريقية الحرية الدينية
ولا حرية الحياة الذاتية ولا الحرية من أى نوع . بل أن شرائع
(آثينا) ما كانت تبيح للوطني أن يعيش بمعزل عن الجماعة .
ولأن يمتنع عن اقامة حفلات الأعياد الوطنية كما يقيم الصلاة .
وما كانت حرية الأزمان الأولى إلا خضوع الرجل لنير
مبادئ البلد التابع له خضوعاً تاماً لبلوغها فيه درجة المشاعر
اللاتبعية . ولو أتيح لأهل بلد أن يكونوا أحراراً في أفكارهم

لما عاش هذا البلد يوماً واحداً بين تلك الجموع التي كان وجودها قائماً على حرب مستمر . ولم يبدأ دور انزواء الآلهة والنظامات والمذاهب إلا من اليوم الذي جاز فيه النظر فيها

أما في حضارة هذا العصر فقد تهدمت على التقريب المبادئ التي كانت تستمد منها قوة العادة والمعتقد . فضعف لذلك أثرها في النفوس . ودخلت في دور البلاء الذي تصير فيه المبادئ القديمة أوهاماً . وما لم يحل محلها مبدأً جديداً فالفوضى حليفة الأفكار . ولهذا الفوضى فضل هو احتمال الجدل والمناظرة . فعلى الكتاب والفلاسفة والمفكرين أن يشكروا هذا الدور وأن يسارعوا بالاستفادة منه لأنهم لن يروه ثانياً متى انقضى . قد يعتبر هذا الدور دور تقهقر وسقوط إلا أنه دور يتمتع العقل فيه بالحرية التامة . فهو لذلك لا يحتمل الدوام طويلاً . لأن أحوال الحضارة الحاضرة تشعر بان الأهم الأوروبية سائرة الى دور لا يقبل الجدل ولا يحتمل الحرية وسببه أن المذاهب الجديدة لن يثبت قدمها إلا اذا حظر البحث فيها وأصبحت كالتي سبقتها لا تطبق المعارضة لا يزال الإنسان في هذا الزمان يبحث عن المبادئ التي

يشاد عليها بناء الاجتماع في المستقبل وهذا هو الخطر الذي
يتهدده . لأن أهم شيء في تاريخ الأمم وأكبر مؤثر في حياتها
هو تغير المبادئ الأساسية لالثورات ولا الحرب اذ من
السهل اصلاح ما أفسدته . ومن لوازم هذا التغير تغير جميع
عناصر المدنية فالثورة الوحيدة التي يخشى منها على حياة الأمم
هي التي تحدث في الأفكار

ليس الخطر في اعتناق الأمة مبدأ جديداً بل الخطر
الأكبر في اضطرارها الى الانتقال من مبدأ الى مبدأ حتى
تعثر على الذي يصلح أساساً يقام عليه بناؤها الجديد . كذلك
ليس الخطر في كون المبدأ غير صواب . فقد كانت المبادئ
الدينية التي عشنا عليها حتى الآن خطأ . بل هو في التجارب
العديدة التي لا بد منها لمعرفة ملائمة المبادئ الجديدة لأحوال
الأمة التي تحاول العمل بها . ذلك لأن الجموع لا تشعر لسوء
الحظ بفوائد هذه المبادئ ، إلا بالتجربة ، نعم لا حاجة لأن
يكون الانسان ضليعاً من علم النفس ولا من علم الاقتصاد
لينبئ بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية الحاضرة يفضي
بالأمم الى أردل درك الانحطاط وأخزي صور الاستبداد .

لكن أين السبيل لمنع الأمم وقد افتتنت بتلك المذاهب من
قبول ذلك الانجيل الجديد

لقد علمنا التاريخ ما ينجم عن الدعوة الى الأفكار في
زمان لم يتهياً أهله لقبولها . ولكن الإنسان لا يلتمس العبرة
من التاريخ فقد حاول (شارلمان) أن يعيد الدولة الرومانية
الا أن مبدأ الوحدة لم يكن ميسوراً تحققه فمات عمله بموته .
وكذلك كان شأن (نابليون) . واستنفد (فيليب) الثاني
حدة ذهنه وسلطان اسبانيا وكانت لها السيادة بين الأمم في
مقاومة حرية البحث التي كانت تنتشر في أوروبا باسم
(البروتستنتية) فلم يفلح . وكانت عاقبة هذه المقاومة وقوع
اسبانيا في خراب وانحطاط لم تقم لها من بعده قائمة . وفي
عصرنا هذا قام متهووس على رأسه تاج يدعو الى مبادئ وهمية
مدفوعاً بذلك الشعور الفاسد الذي امتازت به أمته يريد
توحيد الأمم المتحدة في الجنس . فكان من وراء ذلك وحدة
المانيا ووحدة ايطاليا وضياع أقليمين من أملاكنا وانزوائنا
الى أمد بعيد . افتتنت الأمم بمذهب فاسد . فقالوا قوة الجند
في كثرة العدد ونشروا على القارة الأوروبية بساط حرس

شاكى السلاح . وعاقبة ذلك الإفلاس لا محالة . ولو أن هذه
الجيوش الجرارة الدائمة أبقت لها بقية من المال والوحدة
والسلطان فسيأتى عليها مذهب الاشتراكيين فى العمل ورأس
المال وإبطال حق الملكية الشخصية وإقامة الملكية العامة مقامها
من المبادئ الفعالة فى أحوال الأمم مبدأ الجنسية .
كان السياسيون قديماً يكبرون شأنه ويجعلونه قطب دائرة
سياستهم وكان له الأثر السيئ فان أوروبا وقعت بسبب
طموحها الى تحقيقه فى أشد الحروب ضرراً وجعلها تبيت
متأبطة سلاحها . وسيقودها جمعاء الى الدمار والفوضى .
والسبب الوحيد الظاهر الذى كانوا يدافعون به عن هذا المبدأ
هو أن أقوى الأمم وأبعدها عن الخطر أكبرها وأكثرها أهلاً .
ومع ذلك كانوا يتهمسون بأن مثل هذه الأمم أسهل فتحاً
وأقرب منالاً . وقد ظهر الآن أن أصغرهما وأقلها عدداً كالبرتغال
واليونان وسويسراً وبلجيكا وأسوج وأميرات البلقان أبعد
عن الخطر . لقد كان مبدأ الوحدة سبب خراب إيطاليا .
وكانت زاهرة فأصبحت على شفا جرف الثورة والإفلاس .
اذ بلغت ميزانية جميع ولاياتها مليارين . وكانت قبل الوحدة

التليانية لا تبلغ (٥٥٠) مليوناً

لكن ليس في طاقة الإنسان أن يوقف تيار الأفكار
بعد أن تتصل بالنفوس . ولا بدّ لها من اكمل دورتها . وحمايتها
في الغالب هم الذين أعدّهم القدر ليكونوا أول ضحاياها . وليس
الا الغنم تمشي طائعة خلف الدليل الذي يقودها الى المذبحة .
فعلينا أن نحني الرؤوس أمام المبدأ لأنه متى بلغ في تطوره
درجة معلومة لا ينفع فيه برهان ولا يستظهر عليه بيان . ولا
تخلص الأمم من ربة مبدأ استولى على قلبها إلا بمرور
الدهور أو بعنف الثورة . وقد يكون الاثنان لازمين . وما
أكثر الأوهام التي افترضتها الانسانية فافترستها على الدوام

الفصل الثاني

تأثير المعتقدات الدينية في تطور المدنية

في رجحان تأثير المعتقدات الدينية - في أنها كانت على الدوام الركن الأكبر في حياة الأمم - في أن أكثر الحوادث التاريخية والنظم السياسية والاجتماعية مشتقة من المبادئ الدينية - في أنه يتولد مع كل مبدأ ديني جديد حضارة جديدة - في قوة الخيال الديني - أثره في الخلق - في أنه يوجه جميع الملكات نحو غرض واحد - في أن تاريخ الأمم السياسي والفني والأدبي متولد من معتقداتها - في أن أقل تغيير في المعتقدات الدينية يحدث تقلبات كبيرة في حياة الأمة - أمثلة شتى

أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم وتعتبر منار التاريخ وعماد الحضارة المبادئ الدينية فلها من الشأن ما يجعلنا نفردها للكلام عليها فصلاً مستقلاً

كانت المبادئ الدينية على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم وهي لذلك أهم عنصر في تاريخها . فأكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها .

وأول المسائل الأساسية في الأزمان الغابرة وفي الأزمان
الحاضرة المسائل الدينية . ولو أن الإنسانية رضيت بموت
جميع آلهتها لكان هذا الحادث أعظم الحوادث التي تمت
فوق وجه الأرض منذ ظهرت المدنيات الأولى
لا ينبغي لنا أن ننسى أن جميع النظم السياسية
والتدبيرات الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات
دينية . وأن الآلهة هي التي لعبت أكبر دور في الحياة
الإنسانية . وأن الدين أسرع مؤثر في الأخلاق لا يدانيه
مؤثر اللهم إلا الحب . والحب دين . لأنه دين ذاتي غير
دائم . وإذا أردت أن تعرف على أي حال تكون الأمة التي
اهتاجها خيالها فانظر إلى فتوحات العرب والحروب الصليبية
والاضطهاد الأندلسي وحال انكلترا أيام (الپوريتيين)
(سانت بارتلمي) في فرنسا وحروب الثورة الفرنسية .
الآن أن للأوهام سحراً مستمراً شديداً التأثير يتغير به المزاج
العقلي تغيراً كلياً . خلق الإنسان الآلهة ولكنها ما لبثت
أن استعبدته . وانها بنت الأمل لا بنت الخوف كما وصفها
(لوقريس) لذلك كان تأثيرها سمردياً . لقد كان من تأثيرها

فيه أن جعلت عقله متشبعاً بفكرة السعادة فامتازت بذلك
على كل مؤثر سواها ، وقصرت الفلسفة عن ادراك هذه
الغاية حتى الآن

نتيجة كل حضارة ان لم تقل غايتها وكل فلسفة وكل
دين تكوين حالات عقلية خاصة بعضها يقتضى السعادة
وبعضها لا يقتضيها . وترجع السعادة الى أحوال النفس أكثر
مما ترجع الى الأحوال الخارجة عنها . فلربما كانت الضحايا
فوق مواقعها أسعد من قاتليها . وكم فالح أرض بيديه يقضم
الكسرة مفروكة بالتوم أسعد بكثير من موسر متدفق الثروة
تكاثفت حوله الهموم

ومن دواعي الأسف أن الحضارة في هذا الزمان خلقت
للإنسان جمعاً من الحاجات ولم تعطه وسائل دفعها فتولد من
ذلك عدم الرضاء في النفوس . قالوا الحضارة بنت الرقى . نعم
وهي أم الاشتراكية وأم الفوضى . وهما صوتان مريعان تصيح
بهما جموع قلّ إيمانها فاستولى اليأس على قلوبها . أين حال
الأوروبي الذي تولاه القلق وهاجت أعصابه وأصبح غير
راضٍ بحظه من حال الشرقى الراضى بما قدر له . إنما الفرق

بينهما في حالة النفس دون سواها . وانما يغير الأمة من يغير
من تصورها ويجعلها تفكر وتعمل غير ما عملت

يجب على الهيئة أن تسعى في إيجاد حال عقلية يكون
فيها الفرد سعيداً والآخر فاجل الأمة قصير . فقامت الأمم
حتى الساعة إلا متكئة على خيال فيه قوة اجتذاب النفوس
وما سقطت واحدة منها إلا بزوال سلطان هذا الخيال

من أكبر خطأ هذا الزمان اعتقاد الناس أن النفس
تجد السعادة في الأشياء الخارجة عنها . قل ان السعادة فينا
ونحن الذين نوجدوها . وشذ ما كانت بعيدة عنا . انا هدمنا
خيال العصر الماضي فصرنا نرى أنه لا حياة لنا من بعد هذا
الخيال . وانا اذا لم نوفق الى الاستعاضة عنه فإننا هالكون

أكبر المحسنين لبنى الانسان الذين يجب على الأمم أن
تقيم لهم أنخم التماثيل من الذهب الوهاج هم أولئك السحرة
القادرون الذين خلقوا لها الخيالات . أولئك يولدون أحياناً
بين البشر ولكنهم لا يولدون الا قليلاً . أقاموا أمام سيول
الآمال الفانية — وهي الحقائق التي لا قدرة للإنسان على
معرفة غيرها وفي وجه هذه الدنيا العبوس الجامدة — حجاباً

من الأوهام القوية فسروا عن الإنسانية وسترُوا ما في الحياة
من غضاضة ومضض وخلقوا جنات النعيم فنيط بها الرجاء
وتوالت الأحلام

واذا رجعنا الى الجهة السياسية علمنا أيضاً كيف كان
تأثير المعتقدات شديداً . والسبب في قوة الدين العظيمة كونه
العامل الوحيد الذي تتوحد به وقتاً ما منافع الأمة ومشاعرها
وأفكارها . فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقام غيره
من العناصر التي يتكوّن منها روح الأمة والتي لا تنتج هذه
النتيجة الا اذا أربت وتم نضجها بالوراثة . نعم لا يتغير مزاج
الأمة العقلي بمجرد استيلاء دين على قلبها غير أن جميع القوى
تجه نحو غاية واحدة هي الانتصار للمعتقد الجديد وفي ذلك
سر قوتها العظمى . لذلك تجد أن قيام الأمم بأعظم الأعمال
كان في عصر هذا التطوّر الوقتي أعنى عصر تدينها . وتأسيس
أكبر الممالك التي أدهشت العالم كان في عصر تدينها . كذا
اتحدت بعض قبائل العرب بفكرة محمد (صلى الله عليه وسلم)
فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الأسماء . وشادوا
تلك الدولة الكبرى

والذى يجب الالتفات اليه قوة تمكن المعتقد من النفوس
لا حقيقة هذا المعتقد . لا فرق بين أن تكون الدعوة للاله
(مولوخ) أو لغيره ممن هو أعرق في الحمجية . بل ربما عظم
نفوذ المعبود ان كان قاسى القلب ومن المستبدين . لأن الآلهة
التي تغالت في التسامح واللين لا تشدّ عزائم عبادها . ومن
أجل ذلك ساد أتباع محمد بتشددّه وامتدّ سلطانهم على قسم
كبير من الدنيا زمناً طويلاً . ولا تزال لهم خشية في النفوس .
وأما أتباع (بوذا) الهادى فإنهم لم يأتوا عملاً باقياً . وقد
نسبهم التاريخ

وعليه يتضح أنه كان للدين شأن كبير في سياسة الأمم
لأنه هو العامل الوحيد سريع التأثير في أخلاقها . نعم ان
الآلهة ليسوا خالدين ولكن المبدأ الدينى باق لا يزول .
ينغى زماناً . ثم ينشط متى ظهر ربّ جديد . وهو الذى
استطاعت به فرنسا وحدها منذ قرن أن تقاوم أوربا كلها .
فعرف البشر مرة أخرى درجة تأثير المعتقدات الدينية . لأن
الأفكار التي امتلكت العقول في ذلك العصر كانت في الحقيقة
ديناً جديداً نفخ في الأمة من روحه فأنعشها . لكن الآلهة

التي برزت من خلال تلك المعتقدات كانت لطيفة المادة فلم
تدم إلا قليلاً على أن سلطانها مدة وجودها كان سلطاناً كبيراً
بعد ذلك نقول ان قدرة الديانات على تغيير روح الأمم
قدرة فانية . فقلما تدوم المعتقدات على قوتها الأولى زمنياً يكفي
لتغيير الخلق تغييراً تاماً . سببه أن قوة الأحلام لا تلبث أن
تفتر ويرجع المأخوذ بسكرتها بعض الرجوع الى اليقظة فتظهر
حقيقة الخلق العتيق

يظهر على الدوام خلق الأمة حتى ولسطان الدين في
منتهى شدته فتراه في الصبغة التي انصبغ بها الدين عند الأمة
التي اعتنقته . وفي المظاهر التي تنشأ عنه . انظر الى الفرق
العظيم بين المعتقد الواحد في انكلترا واسبانيا وفرنسا تجد
أنه كان من المستحيل ظهور (البروتستنتية) في اسبانيا
ولا أن ترضى انكلتره باقامة الاضطهاد (محكمة التعذيب)
بين ربوعها بل تأمل حال الأمم التي دانت بالبروتستنتية تظهر
لك أخلاقها الأساسية الأولى بادية عليها وأنها بالرغم من افتتانها
بمعتقداتها لا تزال محتفظة بميزات مزاجها العقلي أغنى
الاستقلال ومضاء العزيمة وتدبر الأمور قبل الأخذ بها وإبلاء

الخنوع والاستذلال لسيّد يصدر في أمره عن الهوى
يتولد تاريخ الأمم السياسى والأدبى والفنى من معتقداتها
الآن أن هذه كما تؤثر في الخلق تتأثر أيضاً به . فمفاتيح حياة
الأمّة خلقها ودينها . والأول دائم من حيث صفاته الأولى
وعدم تغيره هو السبب في وحدة تاريخ كل أمّة واطراده .
أما المعتقدات فقابلية للتغير . وتغيرها هو السبب في أن
التاريخ يحكى كثيراً من الانقلابات في الأمم
أقل تغيير يطرأ على معتقدات الأمّة يجر وراءه تغيرات
عدة بعضها أثر بعض وقد قدمنا في الفصل السابق أن أهل
فرنسا في القرن الثامن عشر كانوا يخالفون جداً في الظاهر
أهلها في القرن السابع عشر . وما السبب في هذا إلا أن
العقل كان انتقل بين قرن وقرن من اللاهوت الى العلم .
وعارض التقليد بالنظر . والحقيقة العقلية بالحقيقة العقلية .
فكان هذا التغير في التصورات كافياً وحده لإحداث التفاوت
بين عصر وعصر . وإذا اقتفينا آثاره رأينا أن الثورة الفرنسية
والحوادث التي تلتها ولا تزال موجودة فينا إنما هي نتيجة
لازمة لتطور حصل في المعتقدات

اليوم تميل الأمم القديمة الى السقوط . فهي تهتز من
الوهن . ونظاماتها تتداعى واحداً إثر واحد . وعلة ذلك
فقدانها كل يوم شيئاً من ايمانها الذي قامت عليه حتى الآن .
فاذا فقدته كله قامت حتماً مقامه حضارة جديدة مؤسسة
على معتقد جديد . لأن التاريخ يدلنا على أن الأمم لا تحي
طويلاً بعد اختفاء معبوداتها . وأن الحضارات التي جاءت
مع تلك المعبودات تذهب بذهابها . ألا لا شيء أفعل في
التخريب من أثر معبود يموت

لفصل الثالث

شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم

في أن الرق العظيم يتم في الأمم على يد نفر قليل من أهل العقول السامية — حقيقة شأن هؤلاء — في أنهم يمثلون جميع مجهودات شعوبهم — أمثلة منتزعة من الاكتشافات العظيمة — شأن عظماء الرجال في السياسة — في أنهم موضع حلول الحيال السائد على أمتهم — تأثير عظماء المهوسين — في أن كبار المكتشفين يبدلون حضارة الأمة — في أن المتعصبين والمتهوسين يخلقون التاريخ

عندما بحثنا في تقسيم الأمم وبيان الفروق التي يختلف بها بعضها عن البعض الآخر اتضح لنا أن الفارق بين الأوروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بفريق راق من العظماء دون هؤلاء فلنأت على طرف من شأن هؤلاء النبغاء

تجتمع مقدرة الشعب كلها في هذه الطائفة الصغيرة المؤلفة من الرجال الممتازين . أولئك الذين اذا أخرجناهم من كل جيل سقط مستوى الأمة العقلي سقوطاً كبيراً . والى

هذه الطائفة يرجع الفضل في الرقي الذي وصلت اليه العلوم والفنون والصناعة وبالجملة جميع فروع الحضارة . والتاريخ يدلنا على أننا مدينون لهذا الرهط بكل ذلك . ومع كون المجموع منتفعاً بهذا الرقي فإن الناس لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم وإن كان النبوغ آتياً من بينهم . لذلك ذهب عظماء المفكرين وكبار المكتشفين ضحية غضب قومهم في غالب الأحيان . وما درى القوم أن غرس الأجيال الماضية وثمرتها ماضيها إنما تنمو في بستان تلك العقول النابغة التي هي قطوفها الدانية . أولئك هم مجد الأمم وكل فرد من أفرادها وإن صغر يفخر بهم ويعتز بشأنهم . لأنهم لا يوجدون اتفاقاً ولا بمعجزة من المعجزات ولكنهم ثمرة الماضي الطويل . فيهم تمثل عظمة عصرهم ومكانة أمتهم . وكل ما ساعد على انبثاق أزهارهم فأنما يساعد على انتشار الرقي الذي تستفيد منه الإنسانية . لكننا إذا تركنا أضغاث أحلامنا بالمساواة العامة تغشى بصائرنا كنا أول ضحاياها فما المساواة إلا بين المنحطين وهي مطمح آمال صغاريلك العقول يحلمون بهم وهم بأحلامهم من التعساء . إنما صدقت تلك الأحلام عند المتوحشين . أما الأمم الراقية فلا

سبيل للتساوى بين أفرادها إلا إذا تدرجت في اسقاط كل رفيع فيها مما تعثر به مكاتها حتى يهبط الى أسفل مستوٍ فيها على أن شأن العظماء ليس على قدر ما هو شائع عند الناس مهما بلغ أثره في رقى الحضارة . لأنه ينحصر كما قدمنا في تمثيل مجهودات الأمة كلها . فاكشافات المكتشفين ثمرة اكتشافات كثيرة سابقة . وهم انما يقيمون بناء من أحجار هندمها المتقدمون على مدى الزمان . ولكن المؤرخين مبالغون بطبيعتهم الى تبسيط الأشياء . تراهم يلصقون بكل اكتشاف اسماً من الأسماء مع أنه لا يوجد بين الاكتشافات الكبيرة التي غيرت وجه البسيطة كالطباعة والبارود والبخار والتلغراف الكهربائي ما تجوز نسبته الى رجل واحد . ومن تأمل في تاريخ هذه الاكتشافات وجدها ثمرة أتعاب سابقة . والمكتشف الأخير انما هو شرفة ذلك البناء

كان العالم (غاليلي) أول من لاحظ تساوى تموجات المصباح المعلق في الفضاء من حيث الزمن فهد الطريق بذلك لاكتشاف الساعات المنضبطة انضباطاً تاماً (كرونومتر) ومن هنا استطاع الملاحون إيجاد ما يهتدون به في طريقهم

فوق الماء . وبارود المدافع مأخوذ من (النار الاغريقية) المحولة
تحويلاً بطيئاً . والآلة البخارية ثمرة اكتشافات عديدة اقتضى
كل واحد منها مجهودات كثيرة . ولو أن رجلاً من الاغريق
أعطى فوق ذكاء (أرشميد) مائة مرة لما توصل الى اختراع
قاطرة السكة الحديدية . ولو استطاع اكتشافها لما استفاد
منها اذ كان يعوزه في ابرازها الى عالم التنفيذ أن يتقدم علم
(الميكانيكا) الى درجة لم يصلها الا بعد ألفى عام

يخيل للناس أن عظماء السياسيين غير مرتبطين برباط
مع الماضي ولكنهم في الحقيقة ليسوا اقل ارتباطاً به من
المخترعين والمكتشفين . ولقد طاش نظر بعض الكتاب مثل
(هيجيل) و(كوزان) و(كارليل) وغيرهم لانبهارهم بسناء
أولئك العظماء الذين يقبلون الأمم ذات اليمين وذات الشمال
ويغيرون حياتها السياسية فأرادوا أن ينزلوهم منازل الآلهة
الذين لهم وحدهم سلطان على مصير الأمم . لا شك أن في
استطاعة أولئك العظماء تعكير تطور الأمة لكن مقدورهم
لا يصل الى تغيير مجرى حياتها . وليس في استطاعة عقل
كعقل (كروميل) أو (نابليون) أن يأتي بعمل مثل

هذا . ورب فاتح عظيم يهدم المدائن بالحديد والنار ويبيد
الرجال ويخرب الممالك كما يحرق الطفل دار تحف ملئت
بكنوز الفنون . الا أنه ينبغي أن لا نغتر بهذه القوة الهادمة
فنخطئ تقدير شأن أولئك العظماء . اذ ليس لأثرهم بقاء الا
اذا عرفوا كيف يستخدمون مقدرتهم حيث تكون حاجات
عصرهم كما فعل (قيصر) و(ريشليو) . وحينئذ فالسبب الحقيقي
في نجاحهم موجود قبلهم بزمان طويل . ولو ظهر الرجال
قبل عصرهما بقرنين أو ثلاثة قرون لما أُتيح للأول أن يخضع
الجمهورية الرومانية العظيمة الى ارادة سيد قاهر . ولا تمكن
الثاني من ايجاد الوحدة الفرنسية . وعليه فكبراء السياسة
الحقيقيون هم الذين يمثلون حاجات الأمم التي اقتربت والحوادث
التي أتم الزمان معداتها ويرشدون الى الطريق الذي يجب
السير فيه . وقد يجوز أن يكون هذا الطريق مجهولاً من
الجميع . ولكن الأقدار التي قضت بتطور الأمة كانت لا بد
أن تدفع اليه الأمم التي أخذ أولئك القادرون موقتاً بزمامها .
فمثل هؤلاء كمثل المكتشفين يمثلون ثمرات مجهودات طويلة
سابقة

لا ينبغي أن نذهب الى أبعد من ذلك في المقابلة بين طبقات عظماء الرجال . فللمكتشفين شأن كبير في تطوّر الحضارة المستقبل ولكن لا شأن لهم مباشرة في تاريخ الأمة السياسى . ذلك لأنهم من مخترع المحراث الى مخترع التلغراف ومن بينهما من أصحاب المخترعات التى يتمتع بها الناس لم يكن لهم من الصفات الخلقية ما يمكنهم من اقامة دين أو افتتاح مملكة . أعنى أنهم لم يكن لهم من المواهب ما يستطيعون به تغيير التاريخ تغييراً بادياً . وتجردهم من تلك الصفات آت من كونهم أهل تفكير وتدقيق . والمفكر لا يجهل ما فى المفكورات من الأشكال والتعقيد . وعلمه هذا يؤثر فى يقينه فيضعف منه . ومن جهة ثانية تراه لا عناية له بالأطماع الا قليلاً لأن الذى يستحق ذلك منها نادر . فلا يحفل بواحد منها . والخلاصة أن المكتشفين لا يغيرون الحضارة الا مع الزمن . وأما المتعصبون ذوو العقول الضيقة الممتازون بقوة الخلق وشدة الشهوة فهم الذين يقدرّون على اقامة الأديان وتأسيس الممالك وقلب نظام البشر . هذا بطرس الراهب أقام صوته ألوف الألوف ورمى بهم نحو الشرق . وهذا صوت

محمد (صلعم) كان له من قوة التأثير ما انتصر به على الدنيا
القديمة الاغريقية الرومانية . وراهب حامل الذكر مثل (لوثر)
أقام أوروبا وقذفها في بحر من النار والدماء . لكن الجموع
لا تسمع صوت (غاليلي) أو (نيوتن) . والخلاصة أن عظماء
المكتشفين يعجلون سير المدنية . والمتعصبون والمتهوسون
يخلقون التاريخ

ليس التاريخ كما يسطرونه الآسرد الحوادث التي احتملها
الإنسان ليخلق له خيالاً يعبدده ثم يبيده . وليس لمثل هذه
الخيالات قيمة في نظر العلم الآ كسر اب الضياء فوق الرمال
المتحركة في البیداء

لكن المتهوسين الذين خلقوا هذا السراب هم الذين
قلبوا العالم رأساً على عقب . ولا يزالون يخضعون الناس
لسلطانهم وهم في القبور . ولا يزالون يعملون في أخلاق
الأمم ومصيرها . فلا ينبغي لنا أن نتجاهل شأنهم ثم لا ننسى
أنهم ما قاموا بتلك الأعمال الآ لأنهم مثلوا على غير علم خيال
أمهم وعصورهم فلا حول لرجل في تحريك أمة الآ اذا تمثل
أحلامها تمثل موسى حاجة اليهود الى الخلاص بعد أن اختمرت

في قلوبهم منذ سنين قضاؤها عبيداً ترهق أجسامهم سياط
المصريين . وأدرك (بوذا) و (عيسى) تعاسات عصورهم
فصوروا الرحمة والحنان بصورة دين وكان الناس يتشوقون
منذ زمان الى رحمة وحنان ينجيهم من شقاء عام . ووحيد محمد
الدين فآلف بين قلوب قوم كان بعضهم لبعض عدواً . وجندى
نابعة صار نابليون تمثل الرغبة في المجد الحربى والزهو بنشر
الثورة ذلك ما اشتهرت به في عصره أمة طاف بها خمسة
عشر عاماً آنحاء أوروبا وراء أغراض لم تكن الا ضرباً من
الجنون

ان قواد البشر هم الذين يمثلون مبادئ البشر ويعملون
على نشرها وان شئت فقل قائد الناس مبادئهم . ويتم النصر
المبادئ متى قام للدفاع عنها متهوسون ومؤمنون . ولا عبرة
بما اذا كانت على حق أو باطل . بل ان التاريخ يفيدنا أن
أكبرها بطلاناً أكبرها أثراً في فتنة الناس . وحتى الآن
لا نعلم أنه أصاب الدنيا انقلاب أو سقطت حضارة كان يظهر
أنها خالدة أو قامت حضارة على أطلالها الا اذا كان ذلك باسم
مبادئ ينجل العقل منها . وليست مملكة السموات هي التي

هيئت لفقراء العقول كما جاء بتوكيده الإنجيل بل مملكة الأرض
على شريطة أن يكونوا من ذوى اليقين الذى يرفع الجبال
الراسيات . وعلى الفلاسفة الذين يقتلون الأدهار فى هدم
ما بناه المؤمنون فى يوم واحد أن يخرجوا لهم ساجدين .
فانهم حلقة من سلسلة تلك القوى الخفية المهيمنة على
الكائنات . ولقد جاءوا بأعظم الحوادث التى خلدت فى
بطون التاريخ

جاءوا للناس بالأوهام . والناس عاشوا بتلك الأوهام
المخيفة الجذابة الباطلة . وستبقى مصدر حياتهم فى المستقبل .
فان قيل أنها طيف لا حقيقة له قلنا طيف وجب احترامه .
فبفضله عرف أبائنا حلاوة الأمل فانطلقوا وراء تلك الأوهام
انطلاق الشجاع أصابته جنة . وأتقذونا من الهمجية الأولى .
وأوصلونا الى ما نحن فيه الآن . كذلك كانت الأوهام أشد
عوامل الحضارة تأثيراً . الوهم هو الذى شاد الأهرام وغطى
وجه مصر بصخر مصنوع مدى خمسة آلاف عام . والوهم هو
الذى بنى فى القرون الوسطى تلك البيع الضخمة الهائلة . ورمى
بالغرب فوق الشرق للاستيلاء على أحد القبور . والوهم هو

الذى أسس أدياناً دان بها نصف البشر . والوهم شاد أكبر الممالك
وأباد أعظم الدول . وهكذا بذلت الإنسانية جل مجهودها وراء
الخيال لا طلباً للحقيقة . وما كان لها أن تصل الى أغراضها
الوهمية . ولكنها في سيرها حققت الرقي في كل معنى . وما
كانت لتطلب منه شيئاً

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم



لفصل الأول

كيف تذبل الحضارة فتموت

تحلل الأنواع النفسية — كيف تنعدم الكفاءة الوراثية في زمن قصير بعد أن احتاجت في تكوينها الى دهر طويل — في أنه ينبغي للأمة زمن طويل لتبلغ ذروة الكمال الممكن وقد لا تحتاج الا الى زمن قصير لتنحط الى الدرك الاسفل — في أن أهم عوامل انحطاط الأمة انحطاط خلقها — في أن طريقة انحلال المدنية واحدة عند جميع الأمم حتى الآن — في علامات الانحطاط البادية في بعض الأمم اللاتينية — في نمو حب الذات — في ضعف المهمة الذاتية والارادة — في انحطاط الخلق والآداب — في الشيبة الحاضرة — فيما قد يكون للاشتراكية من التأثير — في أخطارها وقوتها — في أنها تقود الحضارة التي تمنى بها الى تطورات وحشية صرفة — في الأمم التي يجوز انتصار الاشتراكية فيها

شأن الأنواع النفسية في عدم الدوام شأن الأنواع

التشريحية أى الجسمانية . لأن أحوال البيئة التى تقتضى وجودها لا تدوم مدى الدهر . فإذا تغيرت تلك الأحوال لا تلبث عناصر المزاج العقلى التى كانت مرتكزة عليها أن تتضاءل حتى تنعدم . فهناك اذن نواميس طبيعية تحكم على خلايا العقل كما تحكم على خلايا الجسم . وهى ظاهرة الأثر فى جميع الكائنات . ومن مقتضى تلك النواميس أن الزمن الذى يلزم لانعدام الأعضاء التى تتكوّن الذات منها أقصر جداً من الزمن المقتضى لتكوينها . ذلك لأن العضو الذى لا يعمل لعدم خاصية العمل بلا توانٍ كعيون السمك التى تعيش فى المياه خلال الصخور يضعف نورها ويصير ذلك الضعف وراثياً مع الزمن وإذا نظرنا الى حياة الانسان على قصرها وجدنا أن العضو الذى لم يتكوّن الا بعد أجيال كثيرة بتعدد الوراثه يشل سريعاً اذا بطل استعماله

ولا يشذ المزاج العقلى عن حكم هذه النواميس فالخلية المخية التى لا تعمل تفقد وظيفتها . ومن هنا صح أن بعض الكفآت العقلية التى تتكون على طول الزمن تزول فى وقت قصير . فالشجاعة وقوة الاستنباط والعزيمة والإقدام وغيرها

أحوال البيئة

من صفات الخلق كلها بطيئة التكوين . وهي سريعة الزوال
إذا لم تجد محلاً للعمل فيه . ومن هنا يعلم السبب في أن الأمة
لا تنال قسطاً من الرقي إلا بمرور العصور الطويلة وأنها قد
تهوى الى الخضيض على عجل

وإذا أمعنا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم التي يذكرها
التاريخ بلا استثناء لا فرق في ذلك بين الرومان أو العجم أو
غير هؤلاء وهؤلاء وجدنا أن العامل القوي في انحلالها تغير
طراً على مزاجها العقلي ترجع علته الى انحطاط الخلق . ولست
أعلم أن دولة واحدة سقطت لانحطاط الذكاء في قومها .
فطريقة انحلال المدينيات واحدة . حتى أن الانسان ليتساءل
كما فعل أحد الشعراء ان كان التاريخ الذي امتلأت به المجلدات
العديدة صفحات كثيرة أو هو في الحقيقة صفحة متكررة
إذا بلغت الأمة ذروة الحضارة والقوة فأمست في
مأمن من غارة الجار ومالت الى التمتع بنعمة السلام والمعيشة
الراضية التي هي بذت اليسر ماتت فضائلها الحربية وتجدد لها
من الحاجات بقدر ما زاد في حضارتها . وتمكن حب الذات
من النفوس ولم يعد من همها إلا سرعة التمتع بالخيرات التي

نالتها على عجل . فتصرف الهمم عن الاشتغال بالمصالح العامة .
وتضيع في الناس الفضائل التي كانت سبباً في عظمة الأمة .
وحينئذٍ يغير عليها جوارها من الأمم المتبربرة او التي هي في
حكمها . لأنه ان كان أقل منها حضارة فهو أشد خيلاً ثم
يهدم حضارتها ويقيم على أطلالها حضارة أخرى . ذلك ما
جرى للرومانيين والفرس فانهم على ما كانوا عليه من احكام
النظام شئت البربر شمل الدولة الأولى كما شئت العرب شمل
الثانية . ومن المحقق أن الذي أعوز المغلوب لم يكن هو العقل
والذكاء . بل أنه لا مناسبة في ذلك بين الغالب والمغلوب .
لأن أرقى العقول وأكبر الفطن ظهرت في روما وهي حبلى
بموجبات سقوطها أعنى في عصر الأمبراطرة الأول . ففي
ذلك الزمان نبغ أهل الفنون والأدباء والعلماء . وإلى ذلك
العصر ترجع جميع الأعمال التي بنى عليها مجد تلك الأمة
الباذخ . ولكنها كانت أضاعت العامل الأساسي الذي
لا يقوم الذكاء مقامه مهما بلغ . ألا وهو الخلق

كان للرومانيين الأولين حاجات قليلة وخيال قوى هو
عظمة روما . وكان هذا الخيال مستولياً على جميع القلوب .

وكل وطنى كان يفديه بالمال والنفس والعيال . فلما صارت روما قطب دائرة الدنيا وأغنى مدينة في العالم جعل الأجانب ينسلون اليها من كل حذب فمنحتهم في آخر الأمر لقب وطنيين . وما كان لهم حظ الا التمتع بزخرفها . وما كان لهم عناية بعزها وعلو مكاتها . أصبحت تلك المدينة الكبرى محشراً فيه الخلائق من جميع الأجناس . الا أنها لم تكن اذ ذاك روما . وكانت تلوح عليها في الظاهر علامات الحياة . ولكنها كانت لفظت روحها منذ عهد بعيد

وهناك أسباب شبيهة بالتي سبقت تهدد بقاء حضارتنا الراقية ويزاد عليها أسباب جديدة آتية من التغير الذى طرأ على الأفكار بتأثير الاكتشافات العلمية العصرية . فقد بدل العلم بأفكارنا الأولى أفكاراً أخرى . وأفقدها ما كان للمبادئ الاجتماعية والدينية من التأثير فى الناس . وأزاح الستار للإنسان فعلم مقدار دقة مكانه فى هذا الوجود . وعلم أن الطبيعة غير شاعرة به فيها . وفقه بأن الذى كان يسميه حرية ليس الا الجهل بأسباب الاسترقاق . وأن شأنه فى الحياة الدنيا أن يكون عبداً بين مخالف الأقدار التى تدفعه بالقهر

عنه . وأيقن بأن الطبيعة لا تعرف تلك العاطفة التي يسميها
الرحمة . وأن الرقي الذي وصلت اليه الإنسانية لم تلده الطبيعة
الآبعا مل التفاعل بين العناصر الكونية قويا يدق عنق
ضعيفها . تلك أفكار شديدة الوقع يقف منها الدم جامداً في
عروقه . وهي تخالف معتقدات آبائنا الذين كانوا بها في عيشة
راضية . وقد ولدت في النفوس شكوكاً مزعجة . وجلبت على
أهل العقول الصغيرة فوضى الأفكار التي يمتاز بها المرء في
هذا الزمان . وغيرت تلك الشكوك أطوار الشبيبة المشتغلة
بالآداب والفنون . فغرست فيها جهوداً مشوباً بالكآبة .
وذلك أفقدها الإرادة . ونزع منها القدرة على الاهتمام بأى
أمر . وجعلها تعبد المنافع الذاتية الوقتية دون سواها

لاحظ أحد كبار الكتّاب في هذا العصر ملاحظة
أصاب بها الواقع وهو (أن الحسن النسبي متسلط على ملكة
التصور في هذا الزمان) وأراد أحد وزراء المعارف أن
يشرح هذه المشاهدة في خطابة ألقاها حديثاً فقال وملاحه
تدل على سروره من نفسه « ان حلول المبادئ النسبية محل
المبادئ الكلية في جميع معارف الانسان هي أكبر الفتوحات

التي أتانا العلم بها « على أن هذا الفتح قديم في الحقيقة
لا جديد . ففلاسفة الهند كانوا يقولون به منذ عشرة قرون .
وليس مما يسرنا رجوعه عندنا مرة ثانية . لأن الخطر كل
الخطر ناشئ على الأخص من فقدان التصديق بالمعتقدات
التي كانت حياة الأمم قائمة عليها . وأني لا أعرف من أول
التاريخ حتى الآن حضارة أو نظاماً أو معتقداً يرجع فيه الى
مبادئ ليس لها القيمة نسبية . فان قيل أن المستقبل في
الظاهر لمذاهب الاشتراكيين التي يردّها العقل فالسبب في
ذلك أن تلك المذاهب هي التي يدعى القائمون بنشرها أنها
مشمّلة على حقيقة كلية . ومن عادة الجموع أنها تلتف حول
الذين يدعونها الى الحقائق المطلقة ولا تعتد بمن عداهم . ولا
يكون الرجل سياسياً الا اذا سبر روح الجموع ووقف على
حقيقة أخلاقها وترك التجريدات الفلسفية ظهرياً فان الاشياء
لا تتغير الا قليلاً . وانما الذي يتغير صورها والفطن هو
الذي يستخدم تلك الصور

نعم ليس في وسعنا أن نعرف من حقيقة الوجود الا ما
ظهر أعني حالات نفسية قيمتها نسبية بالضرورة . لكن اذا

نظرنا الى الجهة الاجتماعية جاز لنا أن نقول بأن لكل عصر
ولكل أمة أحوالاً وآداباً ونظامات ذات معنى كلى . ولا
بقاء لتلك الأمة الا بذلك كله . فاذا قام الجدل عليه وتطرق
الشك فيه الى العقول فقد اقتربت ساعة الأمة لا محالة

هذه حقائق ليس هناك حرج من تقريرها فما من علم
ينكرها والضرر كل الضرر في تقرير ما يخالفها أما مذهب
العدمية الفلسفية الذى يتصدى لبشه بعض أهل الراى فى
ضعفاء العقول فانه يفضى بهؤلاء الى اعتقاد أن نظام الهيئـة
الاجتماعية الحاضر نظام جائر لا رحمة فيه البتـة . وأن طبقات
الناس التى فطروا عليها ضرب من الهزء والسخرية . ويفرس
فى قلوبهم بغض ما هم عليه من كل شئ ويقودهم مباشرة الى
الاشتراكية والفوضى . وساسة هذا الزمان شديدو الاعتقاد
بتأثير النظامات ضعيفو الإيمان بالمبادئ . مع أن العلم يكشف
القناع لهم عن اشتقاق الأولى من الثانية وأن بقاء النتائج
مشروط على الدوام ببقاء المقدمات . فالمبادئ عبارة عما فى
الكائنات من العوامل الباطنة . واذا انعدمت تهدمت
بانعدامها الأسس الخفية التى ترتكز عليها النظامات والحضارة .

وكذلك كان أشد أوقات الأمم محنة هو الزمان الذي ذهبت فيه مبادئها الى حيث دفنت معتقداتها

واذا انتقلنا من المقدمات الى النتائج وجب علينا التسليم بأن علامات الانحطاط أصبحت بادية في معظم الأمم الأوروبية وعلى الأخص في الأمم المعبر عنها باللاتينية سواء جاءها هذا الوصف من حيث الأصل أو من حيث التقاليد والتربية . فتراها تفقد كل يوم شيئاً من قوة الاستنباط والهمة والإدارة والكفاءة للعمل . وتكاد تكتفى بسد حاجاتها المادية . وهذه كل يوم في ازدياد . أما العائلة فصائرة الى الانحلال . وقوى المجتمع آخذة في التمزق . والغضب والحرج ينتشران في جميع الطبقات من أحقر الفقراء الى أكبر الاغنياء . وأشبه الإنسان في هذا الزمان مركباً فقدت ربانها فهامت كما تشاء الأقدار أنى تسيرها الرياح . وأخذ يضرب في أودية الفراغ التي كانت تملأها الآلهة فجعلتها العلوم قاعاً صفصفاً . فلما أضاع الإنسان ربه فقد الرجاء . وقويت في الجموع حاسة التأثر . وصارت سريعة التحول الى الدرجة القصوى . ولم يعد أمامها من سد يرد جماحها . فهي تموج بلا انقطاع منتقلة من جنون الفوضى

الى خنوع الاستبداد . مجرد القول يثيرها . ولها كل يوم
معبود جديد تسجد له في الصباح وتعدمه في المساء . يخيل
لك أنها تجد في طلب الحرية . وهي في الحقيقة تطاردها
وتسأل الحكومة أن تضع في أعناقها سلاسل وأغلالاً . تقدم
الطاعة العمياء لأحقر شعيتها وأضيق المستبدين نظراً .
والقوّلون الذين يظنون أنهم يقودونها وهم انما يسيرون خلفها
لا يفرقون بين من ملكه الضجر وهاجت اعصابه فطلب كل
يوم سيّداً جديداً وبين روح الاستقلال الذي يأتي الخنوع
لسيد مهما كان . الحكومة على اختلاف مسمياتها هي المعبود
الذي تستقبله الأحزاب كلها . يطلبون منها كل يوم قيّداً
جديداً . وحماية تزيد في ثقل حملها على الناس يرغبون اليها أن
تحيط الأمة في دقائق الأعمال وجلالها بنظمات أشد من
نظمات البيزنطيين وأكبر استبداداً . وترى الشبيبة كل يوم
مائلة عن الأعمال التي تقتضى التعقل وقوة الاستنباط والهمة
والمجهود الذاتي والإرادة . تجزع من التبعة وان صغرت .
وتكتفى بالانزواء في وظائف الحكومة الدنيا . والتجار
يجهلون طريق الاستعمار . والذين في المستعمرات هم

الموظفون^(١). واستعاض رجال السياسة الهمة والعمل
بمناقشات شخصية يرتاع الإنسان من تجردها عن المعنى .
كما استعاضت الجموع تينك الصفين بالاندفاع أو الغضب الذي
يغيب مع شمس يومه . وحل محلها في المتعلمين وجدان تبلله
دموع العجز وقد اختلطت فيه صور الأشياء ثم أقوال فائرة
يندبون بها شقاء هذا الوجود . وأبى دنوت وجدت حب
الذات بالغاً حده . وأمة هذه حالها لا يكون للفرد منها هم الا
بذاته . وهنالك تلقى الضمائر سلاحها . وتخط درجة الآداب
العامية الى أن تزول شيئاً فشيئاً^(٢) . ويفقد المرء كل قدرة

(١) انقل هنا عن جريدة (السيكل) نبذة من خطاب القاه موسيو
(اتيين) وكيل نظارة المستعمرات في مجلس النواب بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٠
قال « يبلغ سكان (قوشنشين) ١٦٨٠٠٠٠ نسمة بينها ١٦٦٠٠ من
الفرنساويين منهم ١٦٢٠٠ موظفون ويحكمها مجلس ينتخبه هؤلاء ولها نائب في
مجلس الشورى أهل ترجون أن لا تنتشر الفوضى في تلك البلاد (ضحج وضحك
من أماكن كثيرة) أتعلمون نتائج هذا التدبير وانه ينجم عنه أن الميزانية مع
أنها سقطت الى ٢٢ مليوناً تبتلع الادارة منها تسعة ملايين وقد كنت عمدت في
سنة ١٨٧٧ الى الاقلال من الموظفين فأقصت المال المخصص لهم بمقدار ٣٦٥٠٠٠٠٠
فرنك وكان ذلك في شهر اكتوبر وفي شهر ديسمبر سقطت الوزارة التي كنت منها
وفي شهر مارس كان الذين أعفيتهم من الخدمة عادوا كلهم الى وظائفهم »

(٢) يعظم خطر انحطاط الآداب اذا نزل ببعض الطبقات كطائفة القضاة
والموثقين الذين كانوا قديماً يمتازون بالعفة امتياز الجندي بشجاعته وقد سقطت

على قياد نفسه . فلا يعود يضبط ميوله . ومن لم يسد نفسه
ساد غيره عليه

من الصعب تغيير هذا الحال . اذ يجب علينا قبل كل
شئ أن نغير طريقة تربيتنا اللاتينية المحزنة فانها تجردنا من

آداب الموثقين في هذا العصر الى درجة سحيقة فان الاحصاء الرسمي يدل على
أن نسبة المتهمين منهم بلغت ٤٣ في كل ١٠٦٠٠٠ مع ان نسبة المتهمين في الأمة
كلها لا تزيد عن واحد في مثل ذلك العدد وقرأت في الجريدة الرسمية الصادرة
بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٩٠ النبذة الآتية من تقرير رفعه ناظر الحاقنية الى
رئيس الجمهورية قال : « زادت المصائب التي أقلقت الأمة منذ سنة ١٨٤٠ حتى
اضطر أحد سلفائي سنة ١٨٧٦ الى الفات النيابة لحالة الموثقين الفاتاً خاصاً لأن
الرفق والمصائب التي كانت تقع في ذلك الحين أخذت صبغة مخيفة لم تعهد من قبل
فزاد عدد هذه الوقائع المحزنة من (٣١) سنة ١٨٨٢ الى (٤١) سنة ١٨٨٣
الى (٥٤) سنة ١٨٨٤ الى (٧١) سنة ١٨٨٦ وبلغ مجموع ما اختلسه الموثقون
بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨٦ اثنين وستين مليوناً وفي سنة ١٨٨٩ أخليت
وظائف مائة وثلاثة موثقين بعضهم بالعزل والبعض باجباره على ترك وظيفته . واذ
جمعنا الى هذه الحوادث سقوط المشروعات المالية الكبيرة مثل بنك (الكنتوار
ديسكونت) وبنك الخصم والتوفير وبناما وغيرها وجب علينا الاقرار بأن
للاشترائيين بعض العذر في سخطهم على آداب الطبقات التي تدير شؤون الأمة
ومن نكد الحظ أن هذا الانحطاط الأدبي باد في جميع الأمم اللاتينية كما تدل
عليه فضيحة البنوك الرسمية في ايطاليا حيث ظهر فيها أن أرفع رجال السياسة كانوا
يسرقون الأموال بغير حساب ثم افلاس (البرتغال) والحالة المالية التعيسة الجارية
في اسبانيا وايطاليا والسقوط العميق الذي وقعت فيه الجمهوريات اللاتينية في أمريكا
كل ذلك يثبت أنه قد أصاب خلق بعض الأمم وآدابها مرض لا دواء له وأن
شأنهم في الوجود مشرف على الزوال

قوة الإستنباط ومن كل همّة ان كانت الوراثة تركت فينا
أثراً مما ذكر. ثم هي تقتل ملكة الاستقلال العقلي لأنها
لا تبقى للشعبية مطمحاً الا المسابقة في الامتحانات. وذلك
أمر ممقوت لا يقتضى الا اجهاد الحافظة. ونتيجته أن يتولى
جميع الشؤون في الأمة أناس تخلص أهليتهم في الاستسلام
الى التقليد وهم لذلك أقل العاملين جدارة بولاية الأعمال التي
تطلب الهمة الذاتية والإقدام. زار (جيزو) المدارس الانجليزية
فقال له بعض كبار المعلمين: «انى أحاول أن أصب شيئاً من
الحديد في روح التلاميذ» فأنى ترى في الأمم اللاتينية معلمين
ونظمات تعليم تؤدي الى مثل هذا الخيال. ولعلّ النظام
العسكرى يحققه. وعلى كل حال فهو وحده الوسيلة اليه.
فأهم الشروط التي تلزم لنهوض الأمم المائلة الى السقوط تعميم
نظام الجندية وجعله قاسياً جداً وأن تكون الأمة على الدوام
مهتدة بحروب طاحنة

تلاقى الأمم اللاتينية صعوبة في البقاء تحت ظل شرائع
حرة بعيدة عن الاستبداد بعدها عن الفوضى. وتلك الصعوبة
آتية من انحطاط الخلق العام وفقدان أفراد الأمة ملكة ضبط

نفوسهم وانصرفهم عن المرافق العامة الى حب الذات . ومن
السهل أن يدرك المتأمل بغض الجموع مثل هذه الشرائع لأن
الجموع ميالة الى الحكم القيصري رجاء أن ينيلها المساواة في
التسخير لا في الحرية التي لا تكاد تأبه بها . ولكن الذي
يصعب ادراكه نفور الطبقات المستنيرة من النظمات الحرة
ألهم الا اذا حملناه على ما ورثناه عن آبائنا الأولين . مع أن
النبوغ في كل معنى وعلى الأخص رقي المدارك لا يجد جوا
يسبح فيه أصفى من جو هذه النظمات . ولعل العيب الوحيد
فيها عند طلاب المساواة على كل حال هو صلاحيتها لتكوين
طوائف عقلية ممتازة ذات قوة عظمى . وأما أشد النظمات
عبثاً بالأخلاق وبالعقول فهو النظام القيصري على اختلاف
أنواعه . ولا فضل له الا أنه يسوى بين جميع الناس في انحطاط
النفس والهوان في المذلة . وهو أليق النظمات بالأمم الهاوية
الى السقوط . لذلك ترجع اليه ما وجدت الى الرجوع سبيلاً
وبهجة لباس قائد أياً كان يجرها الى تلك الهاوية . ومتى وصلت
الأمة الى هذا الدور فقد تولى زمانها ودنا سقوطها

عهد التاريخ بالقيصرية أنها تظهر في الحضارة ابّان

نهوضها وإبان سقوطها وهي الآن تدخل في تطور ظاهر
للعيان حيث تبدو لنا باسم الاشتراكية . والاشتراكية فناء
الفرد في الدولة . بل هي أشد من القيصرية لأن أكبر
المستبدين عتواً يخشى العقوبة ولكن حكومة الجمع لا سبيل
لأخذها بتبعة وإن عظمت

الاشتراكية في عصرنا أكبر الأخطار التي تهدد الأمم
الأوروبية في وجودها . وهي لا محالة مجهزة عليها في سقوطها
بعد أن عملت فيها العوامل الأخرى وقد تنقضى بسببها
الحضارات الغربية

ولكي تقف على مقدار الخطر الذي ينجم عن هذا
المذهب وعلى شدة تأثيره انظر الى قوة استخلاص النفوس
اليه لا الى التعاليم التي جاء بها . فكأنني به وقد أصبح الدين
الجديد لكل من شقت عليه الحياة وشعر بوقر الأحوال
الاقتصادية الناشئة عن حضارة هذا الزمان . وأولئك جموع
لا تحصى . وسيملاً هذا المذهب السموات بعد أن أمست
خالية . ويقوم في نفوس الذين ضعفوا عن احتمال الحياة بلا
خيال مقام الجنة التي كانوا يرونها خلال نوافذ الجوامع

والصوامع . عشاق هذا الدين القادم كل يوم في ازدياد . وعمما
قريب تظهر ضحاياه . وحينئذ يصير أحد المعتقدات الدينية
التي تهب الأمم لصوتها . والتي تملك القلوب ملكاً مطلقاً
أما كون مذهب الاشتراكية يفضى بالأمة الى أخس
درجات الاسترقاق ويقتل في نفوس من خضعوا لحكمه كل
همة وكل استقلال فذلك مالا جدال فيه . غير أنه لا يعرف
ذلك إلا علماء النفس الواقفون على أحوال الحياة إلا أنه
بعيد عن مخيلات الجموع لأنها لا تسلم بمثل هذه الأدلة .
والأدلة التي تقنع بها لا تأتي من طريق العقل
وأما كون هذا المذهب بعيداً عن التسليم به من كل من له
أدنى ذوق سليم فهو أيضاً مما لا ينكره أحد . إلا أن المذاهب
الدينية التي ملكت قيادنا مدى الدهور حتى الآن كانت بعيدة
أيضاً عن كل ذوق سليم . وما كان ذلك مانعاً من خضوع
أكبر العقول لسلطانها . ان الإنسان لا يصغي في المعتقدات
لغير شعوره اللاتنبيه . وللشعور اللاتنبيه دائرة لا محل
للعقل بين محتوياتها

وعليه فلا مناص للأمم الأوروبية من الرضوخ لدور

الاشتراكية مهما احتوى من خطر عملاً بطبيعة المزاج العقلي
الذى خلقه الزمان فيها . وستدخل به في آخر دور من أدوار
الانحطاط لأنه يهبط بالحضارة الى الدرك الأسفل . ويمهد

السبيل لغارة البربر التي تهددنا بالخراب

واذا استثنينا الأمة الروسية التي هي أمة أسيوية من الجهة
النفسية أكثر منها أوروبية لا نرى في أوروبا غير الانكليز
لهم عزيمة كبيرة ومعتقدات ثابتة وخلق يمثل الى الاستقلال
يحميهم من سبيل الدين الجديد . أما ألمانيا الجديدة فإنها
ستكون من أول ضحاياها بالرغم من مخايل الرقي التي تظهر عليها .

بدليل نجاح الطوائف الاشتراكية المنتشرة في ربوعها . ومن
المحقق أن الاشتراكية التي تفضي الى خرابها ستلبس ثوباً علمياً
خشناً قد يليق بأمة تصورية يتعذر وجودها في بني الإنسان
ولكن المولود العقلي الأخير سيكون أشد تعصباً وأكبر قوة
من اخوته السابقين . وألمانيا أكثر الأمم استعداداً لقبوله فإنها
فاقت على الكل في فقدان ملكة الاستنباط والاستقلال وعادة
حكم الأمة نفسها^(١)

(١) أكبر الكتاب الألمانين موافقون كل الموافقة على هذا . جاء في كتاب

أما الروسية فانها كانت الى عهد قريب على نظام (المير)
أعنى نظام الاشتراكية المعروفة عند الأمم الفطرية وهو أكمل
صور الاشتراكية . بل هي لم تخلص منه تماماً . ولا يمكن
أن تفكر في الرجوع الى تلك الحال المنحطة فلها مستقبل آخر .
اذ لا شبهة في أنها هي التي ستسوق الجموع البربرية على الأمم
الأوروبية لتهمضم حضارتها بعد أن تكون الحروب الاقتصادية
ومذاهب الاشتراكية مهدت لها السبيل

الآن هذه الساعة لم تأت بعد ولا يزال بيننا وبينها
بعض المراحل . على أن ما في الاشتراكية من شدة العسف
يمنع من بقائها وستجعل الناس يترحمون على عصر (تبير)

موسيو (زيجلر) الاستاذ في كلية (استراسبورج) : « اذا كان الميل العام في
انكلترة الى حكومة الأمة نفسها فان التعويل على الحكومة هو ما يمتاز به الأمة
الألمانية . فنحن أمة وضعت تحت الوصاية منذ دهر طويل أضف الى ذلك أن
يد (بسمارك) القوة افقدتنا مدى العشرين سنة الماضية ملكة الاستنباط
والشعور بالتبعة وان كانت جبلتنا في مأمن مما كنا نخاف ومن أجله نلجأ الى
الحكومة في كل حادث جلل بل في الحوادث الصغيرة أيضاً ونكل كل شيء
لعنايتها » اه المؤلف

وكأني بالمؤلف ينزل مشاعر قومه منزلة الواقع وكأني بموسيو زيجلر يشجع
قومه ويستنهضهم الى أبعد ما وصلوا اليه فالظاهر للعيان أن الألمان أمة جد
واقدام وهمة واستنباط ومثابرة ورق مستمر

و (كاليجولا) . إننا لنعجب كيف احتمل الرومانيون مظالم
هذين الجبارين وأمثالهما . ولكن العجب يزول متى عرفنا أنهم
كانوا قطعوا أدوار الحروب الاجتماعية والأهلية وقاسوا أنواع
الحرمان في النفي حتى فقدوا خلقهم ورأوا في أولئك الظالمين
آخر وسيلة للسلامة التي كانوا يرجونها واحتملوا منهم كل
حيث لا أنهم ما كانوا يعرفون كيف يستعوضونهم بغيرهم .
والواقع أنهم لم يجدوا بديلاً عنهم بعد زوالهم بل جرفهم سيل
البربر وحطم مدينتهم . تلك كانت عاقبة دولة الرومان وتلك
دورة التاريخ في الزمان

الفصل الثاني

خلاصة عامة

نوهنا في مقدمة هذا الكتاب بأنه موجز لخصنا فيه ما كتبناه في تاريخ حضارات الأمم . فكل فصل من فصوله بمثابة خلاصة لمؤلف سابق . وعليه فمن الصعب تلخيص هذا التلخيص ولكني سأحاول ذلك لفائدة القراء الذين يعوزهم فراغ الوقت وأقدم لهم المبادئ الأساسية التي تشتمل عليها فلسفة هذا الكتاب في صورة قضايا موجزة

لكل أمة خواص نفسية ثابتة ثبات خواصها الجسمية تقريباً . والنوع النفسى كالنوع الجسمى أى المادى لا يتغير إلا على طول السنين ومرّ الأجيال

يوجد بجانب الخواص النفسية الثابتة الوراثة التي يتكون منها المزاج العقلى لكل أمة خواص ثانوية تنشأ من تغيرات البيئة

وتجدد على الدوام فيخيل لذلك أن الأمة في تحول مستمر كبير
المزاج العقلي لكل أمة هو خلاصة أفرادها الأحياء
وأسلافهم الذين كونوها . فالشأن الأول في حياة الأمم
للأموات لا للأحياء لأنهم هم الذين خلقوا شعورها الأدبي
وهيأوا الأسباب البعيدة في سيرها

تتمايز الأمم بعضها عن بعض بفروق كما امتازت
بفروق نوعية . والأولى ملازمة للثانية . والفرق ضعيف بين
أفراد المثال الوسط في أمة ومثلهم في أمة أخرى وعظيم جداً
بين أفراد الطبقات الراقية . ومن هذه المقارنة يتبين أن الفارق
بين الأمم الراقية وبين الأمم المنحطة هو في احتواء الأولى
عدداً غير قليل من ذوى العقول الكبيرة وفي أن ذلك غير
موجود في الثانية

يتساوى أفراد الأمة المنحطة فيما بينهم مساواة واضحة
وكما ارتقت الأمة وجدت الفروق بينهم . فأثر الحضارة الذي
لا بد منه هو إيجاد الفروق بين الأمم وبين الأفراد . وعليه
فهي سائرة نحو التفاوت لا نحو المساواة

حياة الأمة ومظاهرها حضارتها مرآة روحها تدل على

أمر خفي لكنه موجود . فالحوادث الخارجية أثر ظاهر لنسيج
خفي هو الفعال

ليس الشأن الأول في حياة الأمم للاتفاق ولا للأحوال
الخارجية ولا للنظم السياسية على الأخص بل خلق كل أمة
لما كانت عناصر مدنية كل أمة هي الدلالة الخارجية
على مزاجها العقلي أغنى ممثلة حال تلك الأمة من حيث الكيفية
الخاصة بها في شعورها بالمحسوسات وتصورها إياها فمن
المتعذر نقل تلك العناصر الى أمة أخرى من دون تغيير فيها .
وانما الذي يمكن نقله هي الصور الظاهرة السطحية التي لا قيمة لها
اختلاف المزاج العقلي بحسب الأمم يجعل كل واحدة
تتصور الوجود بصورة خاصة فهي اذن تختلف في الحس
والعقل والعمل . ويقوم النزاع بينها على جميع المسائل متى
احتكت ببعضها . وهذا التنازع هو سبب جميع الحروب
المدونة في التاريخ . فحروب الفتوح والحروب الدينية وحروب
العائلات المالكة كلها في الحقيقة حروب جنسية

لا يتكون من مجموع أفراد مختلفي الأصل شعب مستقل .
أعني أنهم لا يكون لهم روح يشتركون فيها كلهم الا اذا

كثير تبادل النسل بينهم مدة طويلة . واتحدت معيشتهم في
بيئات متحدة . وصارت مشاعرهم واحدة ومنافعهم مشتركة .
ومعتقداتهم عامة

لا يكاد يوجد في الأمم المتحضرة شعوب أصلية بل
ليس هناك الا شعوب صناعية تكونت من أحوال تاريخية
لا يؤثر تغيير البيئة تأثيراً شديداً الا في الشعوب الجديدة
أعني التي تكونت من أخلاط شعبية تفككت أخلاقها
الموروثة بكثرة التناسل . فلا يفلّ الوراثة الا الوراثة . وإذا لم
يكن للتناسل من القوة ما يكفي لزراعة الأخلاق وتشتيتها
كان تأثير تغيير البيئة قاصراً على التخريب . وقد يموت الشعب
القديم ولا يقبل التغيير الذي تقتضيه ضرورة انطباعه على
بيئة جديدة

تبلغ الأمة ذروة مجدها متى تم لها روح قوى عام
وتسقط متى تحلل هذا الروح . وأهم العوامل في هذا التحليل
دخول عنصر أجنبي في الأمة

تتأثر الأنواع النفسية كالأنواع المادية بالزمان كلاهما
يهرم ويموت . وتحتاج كلها في تكوينها الى زمن طويل . وقد

تزول في وقت قصير . اذ يكفي أن تضطرب وظائف أعضائها
ليحدث فيها تطور نحو السقوط وقد تكون نتيجته الدمار
العاجل . فالأثم تقطع قروناً طويلاً قبل أن يثبت لها مزاج عقلي
خاص . وقد تفقده في برهة يسيرة . فالشقة التي تسير فيها الى
الحضارة بعيدة . ومنحدر السقوط قصير غالباً

المبادئ من أهم عوامل الحضارة بعد الخلق ولكنها
لا تؤثر الا بعد أن تتطور على مهل حتى تصير شعوراً وتصبح
جزءاً من الخلق نفسه وتخرج بذلك من دائرة البحث والنظر .
ولا تزول المبادئ الا بعد مرور دهر طويل . وكل حضارة
ترجع الى بعض مبادئ أساسية مسلم بها من الكافة

أهم المبادئ المؤثرة في الحضارة المبادئ الدينية واختلاف
الأديان هو السبب البعيد في أعظم حوادث التاريخ . فتاريخ
الإنسانية مقترن على الدوام بتاريخ آلهتها . وهؤلاء أبناء خيالنا
ولهم مع ذلك سلطان كبير حتى أن تغير أسمائهم كافٍ وحده
في قلب نظام العالم بأسره . وظهور آلهة جديدة كان على الدوام
طليعة حضارة مقبلة واختفاؤهم كان على الدوام نذيراً بزوال

حضارة مدبرة

AMERICAN UNIVERSITY IN CATHY

فهرست

مقدمة المؤلف

صفحة

٢

مذاهب المساواة في العصر الحاضر وروح التاريخ

الباب الأول

طبائع الشعوب النفسية

- | | |
|----|--|
| ١٠ | الفصل الأول — روح الشعوب |
| ٢٣ | الفصل الثاني — حدود تغيير أخلاق الأمة |
| ٣١ | الفصل الثالث — الطبقات النفسية للأمم |
| ٤٤ | الفصل الرابع — درجات الفروق بين الأفراد والأمم |
| ٥٤ | الفصل الخامس — تكوين الأمم التاريخية |

الباب الثاني

ظهور أخلاق الأمم في عناصر مدنيّتها

صفحة

الفصل الأول — في أن عناصر المدنية في كل أمة

٦٤ هي مظاهر روح الأمة في الخارج

الفصل الثاني — كيف تتغير النظمات والديانات

٨١

واللغات

٩٨

الفصل الثالث — كيف تتغير الفنون

الباب الثالث

تاريخ الأمم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

الفصل الأول — كيف تصدر النظمات عن

١٢٢

روح الأمة

- الفصل الثاني — تطبيق النظريات السابقة على تطوُّر
الولايات المتحدة بأمريكا والجمهوريات
الأسبانية الأمريكية ١٣١
- الفصل الثالث — في أن تغير روح الأمة يغير من
تطوُّرها في الحياة ١٤٥

الباب الرابع

كيف تتحوَّر الصفات النفسية للأمم

- الفصل الاول — أثر المبادئ في حياة الأمم ١٥٦
- الفصل الثاني — تأثير المعتقدات الدينية في
تطوُّر المدنية ١٧٧
- الفصل الثالث — شأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم ١٨٦

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم

صفحة

١٩٦	الفصل الاول — كيف تذبّل الحضارة فتموت
٢١٥	الفصل الثاني — خلاصة عامة

AMERICAN ORIENTAL SOCIETY
IN CAIRO

B12676457

I14127696

AUC - LIBRARY



DATE DUE



 6 FEB 1993	
 A.U.C	 A.U.C
1 DEC 1993	11 APR 1993
 A.U.C	
26 DEC 1994	
 A.U.C	
24 JAN 1995	

LIBRARY OF THE UNIVERSITY OF CALIFORNIA



1 0 0 0 0 0 3 7 6 0 0

8 FEB 1988

